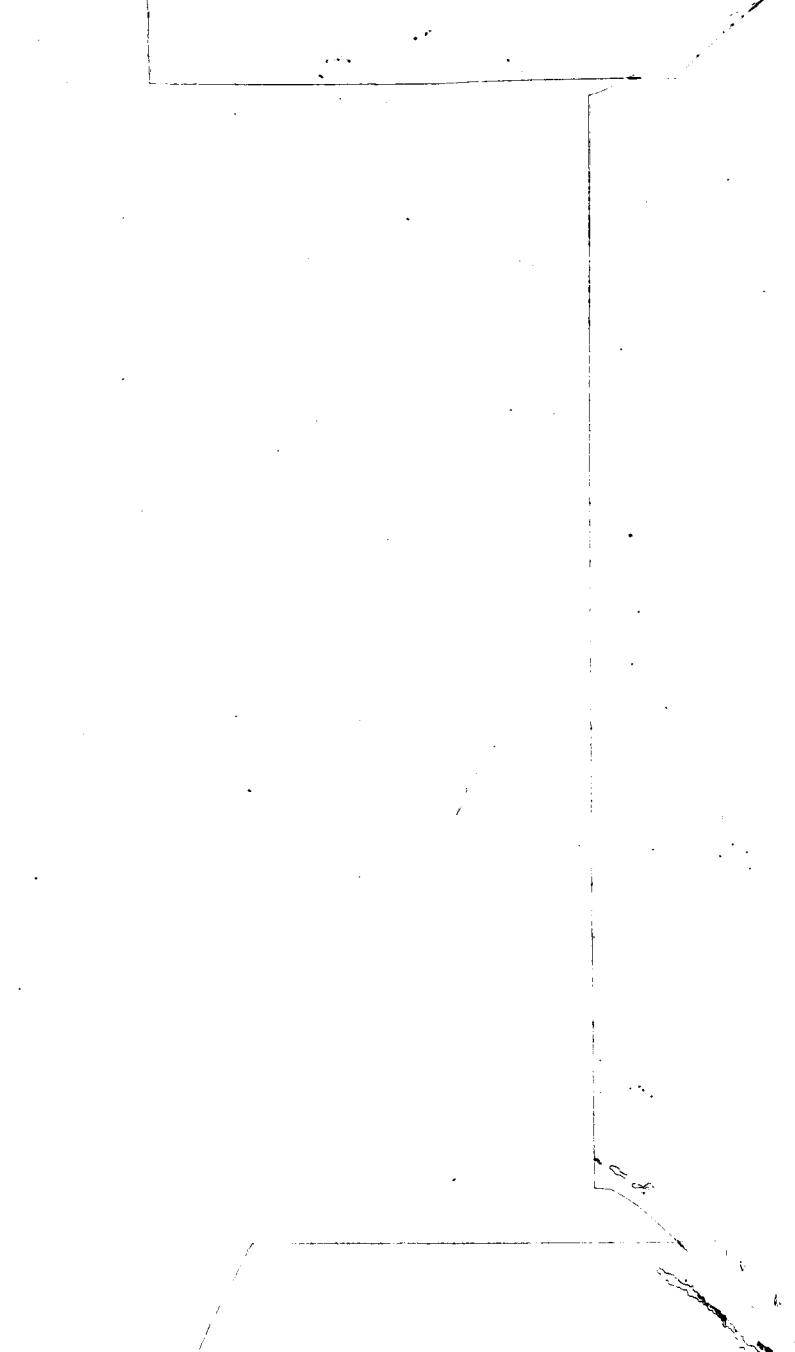

جماعة الأدب الناقص

جماعة الأدب الناقص

هيثم الورداني

الطبعة الأولى، ٢٠٠٣

(c) ميريت للنشر والمعلومات

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس- ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

الغلاف: **تيجر**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/١٧٤٤٦

الترقيم الدولى: **977-351-149-9**

هيثم الورداني

جماعة الأدب الناقص

قصص

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٣

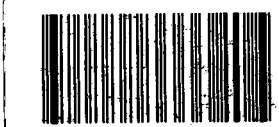

جماعة الأدب الناقص

وهي جماعة تقوم على رفض النهايات، واعتبارها خدعةً يُقصد منها إكساب العمل قيمةً جوهريةً أو منطقاً داخلياً. ويشتد بعض أفراد تلك الجماعة فيقول بأن الأعمال المكتملة مخدر يريح أعصاب قارئها ويهدئ مخاوفه. إذ أن ما يكتمل وينتهي هو الجسم المادي للعمل، أما ذلك الشيء الذي نسجَ الجسم حوله فلا يكف عن الحركة والتبدل. وعندهم أن الأعمال ناقصة بالتعريف، فالعمل يتكون من شذرات رفيعة من هنا وهناك، إلا أنه يتنكر للشذرات الغريبة التي تكونه ويسعى لسحق وجودها وإزالة الخطوط الرفيعة الفاصلة بينها لتذوب جميعاً في وحدانية العمل المنسوب إلى ذاته فقط، والسبب في ذلك عندهم هو إدعاء الأصالة. فالاكتمال خاتم الأصالة، غيابه يعني النقص والتشويه، وحضوره يعني القيمة والاعتبار.

تناول طبّو شفطة من كوبه ثم نهض، وأخذ يسير وهو يتحدث: كل القصص تبدأ بنقص غامض، يصحبه مرح من يُقدم على سحب جديد. ذلك النقص هو قوة عارمة نلمسها ونحاول الحفاظ عليها أطول مدة ممكنة. إلا أنها تقل تدريجياً، وبوصولنا

إلى النهاية تكون ماكينات الجمال والمنطق قد أتمتا عمليهما. ثم قام أحدهم وقرأ المقطع التالي وهو يبتسم:

"... سأكون ماراً عبر باب الكلية الزجاجي، وستكون هي بالخارج، تتحرك بثقة في اتجاهي، هل ينبغي أن أكون حزيناً حتى تصبح المفاجأة أكبر؟، وستكون مرتدية فستانها الأسود الذي يلف جسدها بحنان ويُظهر ذلك المثلث الصافي أعلى صدرها، سأنحرف أنا إلى اليمين وأسير بضع خطوات وآخذ نفساً عميقاً من سيجارتي، سأنظر بتلقائية إلى القادمة تجاهي، ثم أقف فجأة. أول ما ستقع عليه عيناي هو ابتسامتها ثم سأصعد حتى أعثر على عينيها الجميلتين ثم سأترك نفسي لحظات كثيرة في خدر المفاجأة.

ستقترب مني وتلمس يدي:

– كنت في مشوار قريب وقلت آجي أشوفك.

– ....."

أكمل طبّو وهو في طريق عودته من ناحية الدرجتين، وكان يؤرجح رأسه قليلاً مثبتاً ناظريه على الأرض: الأعمال المكتملة تخفي النقص الضارب في أعماقها عن طريق وحدة مصطنعة. وحدة هدفها إنقاذ ذات كاتبها. أما الأعمال الناقصة فلا تتحرج من ذلك النقص بل تمده إلى آخره، وكأنها تقول إنك لاتستطيع أن تكتب بمفردك أبداً. كل ماتستطيعه هو أن تكتب بدقة وأمانة، ثم تترك مسرعاً ما كتبته حتى لاتفسده، في انتظار من لاتعرفه، ليقرأه ويستخدمه.

اتخذت الجماعة من مقهى السكرية مقراً لها. ليس مقهى السكرية العريق الواقع في سرّة القاهرة ولكنه مقهى آخر يقع في شارع جانبي بجوار ويمبي في حي الهرم، وذلك لقربه من مساكنهم. وسبب معرفتي بهم هو أحد أصدقائي المحليّين، فلقد قابلته ذات مرة صدفةً في الشارع، وبعد السؤال عن الأحوال وأخبار الأصدقاء المشتركين قال لي أنه مهتم الآن بالكتابة وقد تعرف على جماعة أدبية غريبة، وحكى لي قليلاً عنهم. استغربت اهتمامه الجديد حيث لم يبدُ عليه أي شئ يتعلق بالكتابة أثناء فترة الدراسة. ثم أبديت رغبتي في قراءة بعض مايكتب إن شاء، فنفى ذلك نفياً قاطعاً وقال أنه لايكتب نصوصاً، وإنما هو مهتم فقط بالكتابة، فتعجبت من ذلك وطلبت منه بدافع الفضول أن يصطحبني معه إلى إحدى جلسات تلك الجماعة، خاصةً أنني أسكن نفس الحي.

دلف أحمد نصر إلى مدخل عمارة وتبعته أنا، ثم صعدنا خمس درجات وانحرفنا يساراً في ممر جانبي طويل معتم يفضي بنا إلى العمارة المجاورة. في الطريق عثرنا على ثلاثة رجال بدا أنهم ضلّوا طريقهم، أحدهم كان بديناً والآخران طويلين، ويحمل كل منهم حقيبة فيها آلة موسيقية ميزت منها العود في يد البدين والطبلة في يد أحد الطويلين، أما الآلة الثالثة فلم أستطع تحديدها. لم يدر بيننا حديث، فقط أومأ لهم أحمد نصر، ونظروا هم إليّ وابتسموا ثم تبعونا، حتى وصلنا نهاية الممر ثم صعدنا درجتين افضيتا إلى باب المقهى.

مقهى السكرية فسيح، يشغل مساحة الدور الأرضي كلها تقريباً. طاولاته قصيرة من الأرابيسك الرخيص، تحلقت حولها كراسٍ خشبية بفرشات حمراء، ونوافذه مغلقة بفعل دخول الشتاء. تناثرت الطاولات والكراسي على مستويين يفصلهما درجتا سلم، لم يكن هناك أحد على طاولات المستوى العلوي القليلة. والمستوى السفلي تتخلله أعمدة المبنى، وعن يساره تخرج الطلبات. وكانت الجلسة تتوزع علي أربع طاولات في الركن المواجه للمدخل، وتأخذ شكل زاوية قائمة: كل ضلع طاولتان. دخل احمد نصر وتبعته أنا، اتخذنا مجلسنا على إحدى الطاولتين الطرفيتين بعد أن سلمنا وطلبنا شاياً.

انتظرتُ أن يعلق أحدهم على ماقيل للتو، إلا أن ذلك لم يبدُ من عاداتهم، وبدلاً من ذلك تململ شاب نحيل في مجلسه يرتدي هاي كول، قدمه أحمد نصر في أذني على أنه بهاء، ثم سكن الشاب قبل أن ينطق بصوت رخيم تشوبه غنة زكام قائلاً: إننا أصبحنا الآن بفضل من الله في عصر العلامات المجردة، كل علامة تحيل إلى علامة أخرى. فإذا عرفنا إن الأصل الحق الذي يُبتغى من وراء كل علامة قد اختفى، رأينا أن الإحالة هي مضاعفة للزيف. وبدا من الضلال إدعاء الأصالة لما هو زيف في الأساس. ودخول الناس على العلامات يتملكونها لينتفعوا بها هو افتراء، إذ أن في ذلك إدعاء لملكية مالايُملّك. ولذا فإن تزييف العلامات وإطلاقها غير أصيلة هو رد الحجة على أصحابها، فإن قالوا أن تلك علامة مزيفة ناقصة قلنا ولكن كل علامة هي مزيفة

في الأساس إذ لم يعد هناك أصل يدعمها، وإن قالوا أن نفي النفي لايعني الإثبات كما تظنون قلنا ومانريد الإثبات، مانريد سوى النفي، وإن قالوا... وهنا قاطعه أحدهم منفعلاً:

"... استيقظت مبكراً كالعادة. كان الضجيج الذي أيقظني اليوم يشبه ضجيج ماكينة الحفر التي يستخدمها طبيب الأسنان، صوت حاد مزعج لاتسمعه بأذنك ولكن ينفذ مباشرةً إلى مخك. كل صباح ضجيج ماكينة جديدة منذ بدأ العمل في إصلاح البيت. فبعد أن اشتراه المالك الجديد أفصح عن رغبته في إصلاح حاله وتحسين واجهته، مما يعني عملياً زيادة قيمة الإيجار. لبثت في السرير قليلاً بمزاج معتل، لاأستطيع إكمال النوم ولا أقوى على الاستيقاظ، حتى سمعت طرقاً واضحاً على الباب فعرفت أن العمال يحتاجون الدخول إلى الشقة. فتحت الباب فرأيت رجلين مبتسمين، أحدهما طويل والآخر بدين بعض الشئ يحمل حقيبة سمسونايت. طلبت منهما الدخول، وبسبب تقدمي لهم فقد تبعاني تلقائياً إلى المطبخ ولم ينحرفا إلى الحمام كما هي العادة حيث المواسير، فقدرت أنهما جديدان ولم يدخلا الشقة من قبل. وقفنا نحن الثلاثة في المطبخ لوهلة بدون كلام وقد علا ضجيج العمل في الطابق الأعلى، ثم قلت إن الحمام يقع على يمين الردهة السابقة، فنطق الطويل دون أن تختفي ابتسامته: نحن لانحتاج إلى حمام، لم أكن في مزاج يحتمل دعابات أحد، فقلت ماذا تريدون إذاً؟ قال الطويل نحن هنا لنخبرك أن مهمتك انتهت، أنت حرّ الآن. اللعنة ماهذا الذي أسمعه، وأي معاتيه يلقي بهم الصباح أمام

بابي. قلت ما الذي تقوله يارجل، أي مهمة وأي هراء ذلك، لابد أنك أخطأت العنوان، قال الطويل مانحن سوى رسولين ورسالتك تقول إن المهمة التي كلفت بها انتهت، تستطيع الآن العيش كما يحلو لك. لم يكف البدين عن الابتسام مظهراً سنةً ذهبيةً تلمع داخل ظُلمات فمه دون أن ينطق بحرف، ثم بحركة واحدة فتح حقيبته السامسونايت وأخرج دفتراً قلّب بين صفحاته ثم قربه إلى عيني، كانت الصفحة مقسمة إلى ثلاث خانات: في الأولى رأيت اسمي وفي الثانية عنواني وفي الثالثة قرأت بالحرف الواحد وأنا لاأكاد أصدق "شكراً.المهمة انتهت. انت حر". لاحظت أن الاثنين لايرتديان الأوفرولات البيضاء أو الزرقاء المعتادة للعمال ولكن أوفرولاً أسود لم أرَ مثيله من قبل. أخذت أعمل عقلي باحثاً عن مصدر سوء التفاهم الحاصل الآن لكني لم أنجح. حسم الطويل الأمر ومد يده بالسلام، وهي الحركة التي رددت عليها تلقائياً بالرغم من ذهولي بوضع يدي في يده، ثم قلت محتداً: انتظر! من أنتم ومن أرسلكم وعن أي هراء تتحدثان. سحب الطويل يده وقال: سيدي! اسمح لنا. اليوم طويل وفي جعبتنا الكثير من الرسائل التي يجب إيصالها...."

كان ذلك إيذاناً بفاصل طويل من الهرج والمرج. إذ تعدد المتحدثون، يقرأون ويتكلمون في نفس الوقت وبعضهم يقفز من طاولة إلى أخرى دون أن أستطيع تمييز مايقولون. كما أن كثرتهم منعت أحمد نصر من تعريفهم في أذني كما كان يفعل. كان الحاضرون جمهورا عاديا من الجالسين على المقاهي في منتصف

التسعينات، خليط من طلبة وعاطلين وصغار موظفين. طراز المقهى الموحي بارتفاع أسعاره، والمتمثل في الأرابيسك الساذج والمصابيح الإسلامية المقلدة والسجاجيد الحمراء المهترئة، هذا الطراز قام بدوره كسياج يحجب المقهى من قوارض المدينة وكلابها، فلا تجد سوى بعض الوجوه اللبنية الغضة، وبعض آثار الاقتصاد الحر المنطبعة على علب السجائر الحمراء والصفراء، ثم الكثير من الوجوه التي تعلوها الجدية مع مسحة خفيفة من السذاجة. وبالرغم من أن قلة صبرهم ومقاطعاتهم المستمرة يمنعانني من التركيز فيما يقولون، إلا أن ذلك أدخل بعض الألفة في نفسي إذ اختفى مظهر الجماعة المتحدة المتواطئة.

ثم دخلت علينا فتاة نحيفة ترتدي بنطلوناً غامقاً مريحاً وقميصاً قطنياً مقلماً وضعته خارج البنطلون. كانت بلا مكياج، وقميصها متسخ قليلاً وقد شمرته عن ساعدها الأيمن. شقت طريقها إلى حيث يجلس بهاء، لم تكن تمشي بخجل أو توتر، بل تبدو كأنها آتية تسعى برسالة من طرف المدينة. جلست بجواره دون أن يتبادلا أي كلمة ثم أشعلت سيجارة من علبتها. كانت عيناها رطبتين قويتين.

لم يبدِ أحد اهتماماً بظهور تلك الفتاة، التفت جواري باحثاً عن أحمد نصر للاستفسار لكنه لم يعد بجانبي. كانت الفتاة تتحاشى التقاء النظرات، وتحرك عينيها بعصبية دون أن يتسبب ذلك فى إضفاء التوتر على حضورها، كانت تشبه عصبية طفل يود أن يطوف بعينيه فوق كل مايراه. قدرت أن رطوبة العينين سببها

الدخان المتصاعد من سجائرها المتصلة. كانت تستمع إلى مايقال ومن حين إلى آخر تعيد خصلة من شعرها تحت الإيشارب دون أن تتبس بحرف.

أخبرني أحمد نصر أن طِبّو الأسمر الطويل هو سبب معرفته بتلك الجماعة، فطِبّو ينتمي أساساً لجماعة أخرى تدعو نفسها جماعة أدب الجوار نشأت في كلية الطب حيث يدرس. وهم أثبتوا النقص الضارب في صميم الأدب، إلا أنهم على خلاف جماعة الأدب الناقص لم يكتفوا بكتابة القطع الناقصة ولكنهم زادوا عليهم الاهتمام بصف القطع بعضها جوار بعض، على أن تكون غاية التصفيف هي حسن الجوار. وهم يجدون متعةً كبيرة في القيام بذلك جماعةً فيأخذ أحدهم قطعاً من الآخر ليركبها مع قطع له ثم يتطلعون إلى الناتج فإذا لم يعجبهم قاموا بتركيب آخر. أما طِبّو فيسمع من هؤلاء ومن هؤلاء، وميله الحقيقي لجماعته لذلك فهو لايتردد بانتظام على مقهى السكرية بل وينفر من آراء بعض أصحابه. وعندما سألته أين تجلس تلك الجماعة، قال هؤلاء لايجلسون ولكنهم يفكرون وهم يسيرون على عادة أهل اليونان القدماء. ثم أخبرني كيف أتيحت له فرصة نادرة لسماع إحدى قصائد طِبّو أثناء سيرهما سوياً من القصر العيني إلى الجامعة، فهو شاعر يرتجل قصائده أثناء السير ولايدونها. وقد كان لتلك القصيدة أثرها الحاسم على صديقي، فلقد أُخذَ تماماً بالتنويعات والأشكال التي سمعها وسَطع في نفسه فجأة شوقٌ جارف لأن

يعرف مصدر تلك المتعة. شوقٌ دفعه منذ تلك اللحظة ليتسكع تائهاً بين أروقة الجماعات المختلفة.

راقبت ابتسامته وأنا أتطلع حولي. وراقبت وجوه الحاضرين المنهمكين في الحديث. وراقبت الموسيقيين الثلاثة الذين جلسوا الآن في المستوى العلوي وأخرجوا آلاتهم. كلما نظرت إليهم نظروا إلي وابتسموا. تمعنت في الآلة الثالثة فوجدت أنها تتكون من أوتار مشدودة على ذراع خشبي ولكن عازفها لاينقر الأوتار بل يضغط على أزرار بجوار الذراع فيخرج صوت معدني غريب. كنت أحاول التعرف على طبيعة الهدير الذي يحيط بي. دبيب متنافر من كلمات وجمل وإيقاعات وأفكار وهمهمات وصلصلات وخروشات. جسدٌ هوائيٌ غير منتظم تخرج من جميع أنحائه رؤوس رفيعة شائكة، في كل مرة تطرق طبلة أذني رأس مختلفة طالبةً السماع فأنصت إليها محاولاً إخراج الباقين من دائرة سمعي، إلا أنها تتواري بسرعة خلف رأس أخرى، وكأنهن راقصات يؤدين مشهداً درامياً يتطلب اختفاءهن الواحدة خلف الأخرى. ثم يأتي وقت تتحل فيه الرؤوس الرفيعة وتخفت فيه تعقيدات وانحناءات الأصوات وتضعف حماسة المتحدثين فيخرج صوت واضح وحيد لاتشوبه شائبة.

"... في الحفلات القاهرية الحديثة تلتقي طبقات متباينة من البشر: مثقفو طبقة متوسطة، برجوازيون معاصرون، ذوو ميول فنية، أكاديميون مستنيرون، فلول أيديولوجيين، باحثون أجانب ومستعربون، ثم هناك أيضاً أبناء السبيل. وعادةً مايكون مكان

المضيف واسعاً وبه شرفة عريضة أو بلكونة فسيحة تصل السامر بالعالم الخارجي، وتستطيع استقبال أكبر عدد من المدعوين طالبي الهواء النقي، أو الفارين من صخب الاحتفال، وتكون مجهزة بوسائل بسيطة للجلوس مثل الكراسي القصيرة أو الفرشات المريحة على الأرض. أما الموسيقى المصاحبة فيراعى فيها دائماً وجود فقرات غرائبية مثل موسيقى دينية بآلات متطورة من باكستان، مواويل إيرانية أخاذة، أدوار مصرية قديمة، موسيقى أندلسية مُشعرَة ببعض الأسبانية الحديثة، بالإضافة بالطبع إلى الجاز الكلاسيكي والشعبيات المصرية. هذا الصخب وتعدد الجنسيات وأنماط السلوك المصاحبة ونوعية المأكولات والمشروبات الموجودة كلها في مكان واحد تبدو كلها خارج السياق العام تماماً بالنسبة لمشاهدة تتابع بفضول وخجل مايحدث من خلال نافذة مقابلة..."

رأيت أن الوقت قد حان لأغير موقعي في هذا المجلس.

فقلت: عفواً أيها السادة ولكنكم قد أتيتم شيئاً لم نسمع عنه من قبل، فأخبرونا أين قرأتم ذلك إن كنتم قرأتموه.

هدأ الجميع ثم انبرى لي شاب قدرت أنه من كشّافتهم وكان يجلس على الطاولة المقابلة، وقال: الكتب صفحات مفتوحة أمامنا نقلبها من أي موضع نشاء، ثم نتركها جانباً. ولانفضل كتاباً على آخر، إذ أن الكتب لاتنتهي بانتهاء صفحاتها، ولاتنقص بتركها، بل تكتمل داخل بعضها البعض.

وبدأ الصخب يزحف مرةً أخرى فرفعت صوتي قائلاً: لاعجب إذاً، تقرأون بلا روية فلا تختمر في رؤوسكم فكرة كاملة. لماذا لاتخملون أنفسكم على إكمال مابدأتم به؟

فرد عليّ من كان يجلس بجواره: وما غاية ذلك؟

فقلت: الغاية أن يفهم القارئ ماتعنونه، فإعطاؤه جزءاً يسيراً لكي يستدل على الباقي لايفيد، وأغلب الظن ليس لديكم شيئ تقولونه.

بدا أن الكلام قد جذبهم فجائني الرد من رجل يجلس بجواري فقال: إننا لانحجب النهايات ولكننا نعجز عن الوصول إليها. وفي كلامك بعض الصحة فلسنا نهتم بالإخبار ولكن بطريقته، فالرسالة التي تريد إيصالها والتي تظن أنها واضحة وكاملة لاتعيش خارج الهواء الذي يوصلها، بل هي جزء لاينفصل عنه. ولذا فإن إدخال بعض الاضطراب على طرق التوصيل لإنتاج أشكال متعددة من سوء الفهم يشكل لنا متعة أكبر من متعة العكوف على رسالة وصقلها، ففي النهاية مايصل هو دائماً شئٌ آخر.

مرت فترة، ثم أجبت: لكن تباين مايفهمه الناس هو دليل على ثراء العمل، بل أن العمل الجيد يجدر به أن يكون رحباً يتسع لمختلف التأويلات.

فقال محدثي: أيُّ عملٍ واحدٍ ذلك الذي يستطيع أن يضم في جنباته جميع الأطراف المتنافرة والهُدب الدقيقة المتباينة للحظة مهما صغرت؟. وتلك هي مايجب على المرء الاعتناء بها إذا أراد الدقة والنزاهة. نحن لا نستطيع أن نكتب قصةً واحدة بل نكتب

عشراً، العشر قصص غير المكتملة أوسع من القصة الواحدة التي تريد أن تضم العشر إليها في رحابتها المزيفة.

قلت: ولكن العشر قصص المبتورة لن تنتج أي معنى وستذهب هباء الريح، أما القصة الكاملة فقد أعطت معنى حتى لو شابه التلفيق.

فقام آخر وقال بتأثر بالغ: نحن مع الهباء. لن يسمع عنا أحد ولانريد أن نسمع شيئاً عن أحد، فنحن قد تركنا البقالة.

استغربت: بقالة؟

فأوضح: عندكم القراءة هي التعرف على صكوك أفكار الكاتب وتثمينها، فإذا ثبتت أصالتها يستحوذ عليها القارئ، ثم يدخل بقالة المعاني فيشتري لنفسه معنى أو معنيين يزين بها بيت ذاته الأنيق. تلك الدنانير الذهبية، تلك المعاني المكتملة. أما نحن فدنانيرنا مزيفة، لاأصالة فيها. تماماً كبضاعة بقالتكم المزيفة.

وانفرط عقدهم مرة أخرى. كان الكلام الدائر يشبه كريات صغيرة تتقافز هنا وهناك، لاتعرف من يمررها لمن. وهم لاينفكون يغيرون أماكنهم، من طاولة إلى أخرى، مرة يقفون ومرة يجلسون، حلقة تتشكل وأخرى تنفض، لايهدأون أبداً ولاينقطع طنينهم. بدأت أفقد توازني تدريجياً. لم أكن أنا إذاً المرآة التي يرون فيها صورة أنفسهم ويختبرونها باعتباري غريباً عليهم، ولكنني كنت أفقد صورتي عن ذاتي شيئاً فشيئاً في متاهة مرآتهم المهشمة. ثم حاولت متمسكاً بالحبل الوحيد الذي في يدي أن أقترب من صاحب البقالة، قلت له أن كتابة القطع دون إتمامها هو

نقص في الموهبة وركون إلى الكسل والاسترخاء، فالعمل الشاق الدؤوب هو قيمة العمل الرئيسية، أما التشتت بين أجزاء غير مكتملة فيضعف ملكة العقل ولاينجب سوى أفكار مبتسرة. لكنه لم يحر إجابة أو ربما لم يسمعني. كيف يسمعني وسط هذا الصخب والهدير؟ وما الفائدة إذا كان قد سمع؟. كانت ابتسامات الموسيقيين غير المبررة تزيد توتري، كذلك النغمة الرتيبة المصحوبة بالصوت المعدني التي يصرون على أدائها، لم يكن هناك أحد يعبأ بهم أو يلتفت إليهم سواي. ثم لمحت الفتاة الصامتة التي كانت تجلس بجوار بهاء وقد التفتت إليه ثم ضغطت بشفتيها على شفتيه وانتشلت علبة سجائرها ونهضت مسرعة وعقبٌ لايزال بين أصبعيها، بينما أطرق بهاء برأسه متفكراً. بحثتُ بعيني عن أحمد نصر فوجدته قد انتقل إلى طاولة أخرى يجلس عليها طبّو ورجل متقدم في السن يتحدث وينصت له الآخرون، ثم بدأ أحمد بالحديث فوددت أن أسمع منه شيئاً. قمت مترنحاً إلى طاولتهم وأنا أسبح فوق بحر من الكلام.

"... سبع ساعات يومياً، واتقاءً للملل روضت نفسي على إطلاق سراح أفكاري على طريقة الرهبان البوذيين، فتطير أينما حلا لها، في حين تقوم يداي وعيناي بوظيفتهما الروتينية. فوظيفتي في المطبعة هي نسخ الصفحات. وعلى خلاف نسّاخ قديم الزمان، الجالسون بجلال في حوانيتهم حول المساجد الرئيسية، يغمسون ريشهم في المداد لينسخوا ما يصنفه العلماء والفلاسفة، كنت أجلس أنا في غرفة صغيرة أمام شاشة كومبيوتر وجهاز

يدعى الماسح الضوئي. أضع على سطحه الزجاجي الصفحة ثم أطبق الغطاء حتى لا يتسرب نور الغرفة، ثم أضغط على الزر فيطبع الجهاز صورة طبق الأصل من الصفحة على شاشة الكومبيوتر أحفظها لكي أرسل صفحات الكتاب عندما تكتمل إلى قسم الطباعة، وهناك تطبع الصفحات على ورق مرة أخرى...."

"... اللغة لاتتكون من كلمات. اللغة تتكون من بشر. عندما تقول "أحبك" تندفع بينك وبين محبوبك مئات من علاقات الحب، مئات من "أحبك" تخرج عبر بوابة "أحبك" التي تقولها أنت، ليس كنسخ من هذه العلاقات ولكن كخارطة خاصة بك تصف عليها هذه العلاقات. لايوجد حب واحد ولكن يوجد حب كثير. حبك الخاص ليس محصلة جمع هذه العلاقات ولكنه تأليف وتآلف بينهما. هل ينبغي على المرء أن يصرف جهده في تركيب حب يتميز عن حب الآخر وينأى عنه؟ أم أن يفسح صدره قليلاً لكي يرى كيف يتشكل حبه من تقاطع خطوط كثيرة دائبة الحركة..."

"... رأينا جميعاً الملاك الصغير الذي يهوِّم فوق رأسه الحليق. أخذ ينهره بحركات واهنة من يديه، إلا أن الملاك المرح لم يكف عن الطنين والرقص. وعندما ضغط هو على أعصاب وجهه، وحرك عينيه الصفراوتين ونفخ محاولاً التخلص من ضغط ما، اعتقدنا أن الملاك يزعجه، ولكنه كان يحاول فقط الابتسام له. لذلك اكتسب الملاك الصغير ودَّنا وابتهجنا معتقدين أن ما بينهما صداقة خاصة لاتخلو من طرافة. في نهاية الليل يسكن الملاك الصغير ويرتاح في التجويف بين رأسه وحافة الوسادة، ملتصقاً

بالثقب الموجود في صدره حيث تدخل سوائل الحياة الغالية. ثم يدلف كل منهما إلي نومه الخاص. فكرنا: ترى هل سيلتقيان في حلميهما ؟ هل سيعودان ؟..."

"... العينان متلاصقتان جوار بعضهما، يشكلان بؤرتي الوجه. الأذنان مدفوعتان إلى حافة الوجه، إلى هامشه، منسيتان وحيدتان.

العينان موجهتان دوماً إلى الأمام. الأذنان لا اتجاه لهما، تقبلان يستقبلان الموجات من كل مكان.

العين تُأطر. والخط هو اختراع العينين، هو القدرة على الإرسال والاستقبال بين نقطتين. الأذن كروية، لا تستطيع أن تعزل صوتاً وحيداً عن باقي الأصوات، بل تلتقط كل الطبقات.

العين مذكرة. الأذن مؤنثة.

العين يتحكم فيها المرء. الأذن تبقى خارج نطاق التحكم، تبقى جزءاً من العالم الخارجي. السمع هو فعل لا إرادي.

ولإني لاأملك عينين في مؤخرة رأسي فإني أقسم المكان إلى أمام وخلف، كل ما أراه هو أمامي وكل ما لاأراه هو خلفي. أمام/خلف، ظاهر/باطن،، معنى/شكل، تلك هي لغة العين.

الأذن تتسم بالسماح تتقبل المنظوم كما تتقبل الهائش..."

"... موجة مختلطةٌ من الأصوات تهب. أجزاؤها متداخلة بعضها فوق بعض. تظل تسير مجتمعة حتى تتحطم على صخرة فعل الاستيقاظ. فتتكسر إلى أصوات منفصلة شيئاً فشيئاً، وكأنها احتمالات تخرج من بحر الصباح في مدينة كبيرة. هذا صوت

سيارة مارة، هذا ارتجاج عربة المترو، هذه طرقعة القواشيط في المقهى المجاور، هذا صوت طفل، هذا صوت أم، ضوضاء دراجة بخارية، كلب ينبح، حديث، خطوات. أصوات تأتي من الخارج منادية، أما الداخل فلايزال متأرجحاً بين مدينتين، في مكان ساحر تختلط فيه الذكريات بالأحلام، تختلط فيه الشوارع والأماكن، مكان يخرج منه سؤال "أين أنا؟" ويأخذ في القفز يميناً ويساراً، ثم يبدأ في التكاثر والتناسخ حتى يعج به المكان. فيفتح السيد فهمي عينيه المحمرتين على هذا السؤال الذي عاد به من النوم..."

كانوا قد كفوا عن الكلام عندما وصلت.

سحبت كرسياً وجلست. الصمت ران على كل شئ، ليس فقط على طاولتنا ولكن على باقي الطاولات. وكأن الهواء لم يعج منذ لحظة بكلماتهم. حتى الموسيقيون لم يعد لهم أي أثر. كل شئ غرق في صمت ثقيل، صمت لاتكاد تحتمله أذن. الآن يجلسون ويقلبون عيونهم في حيرة واستسلام، ودون أي رغبة في كسر ذلك الصمت.

لم يكن هدوءاً تـظلله بعض الخيالات، ولا سكوناً ينعدم فيه الصوت، ولكنه صمت غريب متثل بكل الصخب الذي اختفى فيه. توحدهم في صمتهم انطبع في نفسي على شكل ثقل باهظ شعرت بالحاجة لقول أي شئ لأزيحه، غير أني لم أجرؤ. فكرت أن حاجتي لكسر قشرة ذلك الصمت المخيف هي بالضبط عكس

حاجتهم للسباحة في بحر شذراتهم الصامت. فأنا أحاول محاصرة الفجوة الهائلة التي أخذت تأكل كياني وتضاعف غربتي في المقهى ذاك، بطرق أي موضوع أو النطق بأي جملة لامعنى لها سوى أن تكون معولاً مسدداً إلى قشرة الصمت. بينما كانوا هم الآن ينصتون أخيراً إلي كل ما قيل قبل ذلك، وكأن صمتهم هو اللب الذي تقشر عنه هديرهم، فهم يهدرون بجنون ليصلوا إلى بحر صمتهم المغلق الذي يبتلع شذراتهم في وحدةٍ ترضيهم لأنها ساكنة، لا تخالطها شبهة الإنجاز.

"

الأمل كالثعلب يجد غذاءه بين القبور، ومن جيف اليأس الميتة يستجمع أشد آماله حياةً ونضرة.

وهي في الواقع جملةٌ وردت في رواية موبي ديك، الفصل السابع المسمى بالمعبد، ولكن مع تغيير بسيط، فلقد استبدلتُ كلمة الإيمان في الجملة الأصلية بكلمة الأمل، وكلمة الريب بكلمة اليأس. وذلك في وقت أُصبتُ فيه بنوبة من نوبات اليأس القصيرة التي تنتاب المرء من وقت إلى آخر، وكنت أرى في تلك الجملة التي كتبتها شعاعاً قادماً من الناحية الأخرى.

نوبات اليأس تهاجم المرء من حيث لايحتسب، على ناصية شارع أو على مقعد في سيارة، أو حتى مستريحاً في البيت. تبدأ بزلة في التفكير مصحوبةً باعتلال في المزاج، تتوارد فيها أفكار بائسة وأسئلة يخشاها المرء ويُؤجلها، ثم تتعقد الأمور فأرى حياتي وهي تنسحق كاملةً إلى جيفةٍ صغيرة ميتة. ويتوزع تركيزي على صورتين أساسيتين، الأولى التدهور الشديد تحت وطأة ألم خارجي هائل يزهق الأنفاس، والثانية السقوط في هاوية ذاتي التي لاقرار لها. لامبررات، لاتوضيحات، صوت العقل المنادي بالحرص والتروي يخفت تدريجياً. بعدها أُثبتُ تلك الحالة وألف نفسي بها كعباءة، يعجز أقرب المقربين من اختراقها، وأفر عبر دهاليز المدينة منكساً رأسي، دافناً إياه في عباءتي كجرذ يهلع من الأضواء.

ما أعجبني في تلك الجملة هو غرابة صورتها، فالأمل ليس وردةً تنمو في أرض متشققة جافة، وليس سرباً من الطيور تغرد في وجه اليباب، ولكنه ثعلب مراوغ. ليس من صفاته النضارة أو الوداعة أو الطيبة أو غيرها من المعاني التي يرتبط بها الأمل، بل أنه نفسه يستطيع التحول إلى جيفة حية، فينبطح على الأرض نافخاً أحشائه ومطلقاً رائحة نتنة ليخدع المزارع الذي يطارده فيظنه ميتاً. ذلك الدهاء والخبث الذي لايليق بالأمل هو ماكان يجذبني إلى تلك الصورة. الأمر أشبه بزحزحة للصورة الأصلية، مواربة صغيرة لها، لكنها كافية لكسر المنطق الأصلي تاركةً الصورة متذبذبة وفاقدة الاتزان. تلك الفرجة الصغيرة التي حدثت سمحت بسقوط بصيص من الضوء.

"

التبول على العالم

كنا ثلاثة جمعنا ذلك التفاهم. بدأ الأمر بخلل طارئ في السلوك مر بسلام، ثم تحول إلى فعل متكرر.

البداية الحقيقية كانت في مدخل عمارة تامر حيث كنتُ في صحبته ذات يوم ثم نزلنا لمقابلة صديقنا الثالث شريف المنتظر عند المدخل، ولدهشتنا الشديدة وجدنا بللاً على البلاط ورائحة نفاذة، لم يستطع صديقنا أن يتماسك فقال أنه فعلها، وأنه لايعرف إطلاقاً لماذا، سألناه إذا كان رآه أحد، فقال لم يكن هناك أحد على وجه الإطلاق، أطرقنا متفكرين فيما فعله صديقنا، ثم انطلقنا في الضحك.

تتالت الأماكن. كانت المدرسة أول أهدافنا، باب غرفة المدرسين، باب الوكيل، باب المعمل. التفسير الذي شاع آنذاك أن كلباً نجساً دخل المدرسة وبال فيها. راق لنا ذلك وقررنا التوسع في ميدان عملياتنا، فانطلقنا إلى الشوارع: أبواب عمارات الأصدقاء وردهاتها الأنيقة، نواصي الشوارع القريبة، بوكسات الكهرباء، مقاعد دور السينما، كابينات التليفون، صالات انتظار... وكلما ازدادت هيبة المكان واحترامه كلما اشتعل حماسنا في

مهاجمته. أصبحنا نتقن التكنيك عن ظهر قلب: تدور أعيننا في المكان حتى نتأكد من خلوه، ترافقها إشارات لاإرادية إلى المثانة، ثم يتناول كل منا عضوه بخفة من بين الفتحة ويضغط عليه مؤذناً بانطلاق دفقة البول وسط ضحك هيستيري مكتوم، ثم الإسراع بمغادرة المكان بعد الانتهاء منتشين بلحظة الشجاعة التي اقتنصناها. نشعر بعدها بأن صداقتنا قد ازدادت قوة وبأننا انقلبنا عصابةً من الذئاب وأنزلنا فساداً بما حولنا، قبل أن نسرع بالذوبان داخل المدينة وإعادة الملامح الوديعة على وجوهنا.

كنّا دائماً في انتظار اللحظة المثالية، لحظتنا التي لايشاركنا فيها أحد. لحظة أن يهدأ نبض مكان صاخب ويخلو تماماً من المارة. مكان تطرقه أقدام وعيون الناس صباح مساء، ولايخطر ببال أحد أن يتحول إلى مسرح جريمة. فنراقب بقلوب واجفة التيارات التي تعبره وهي تنحسر، حتى تأتي اللحظة التي ينفلت فيها تماماً من حراسة المدينة ويصبح وحيداً، يتبخر الجميع ولايبقى سوانا. تلك الوحدة المرعبة التي تملؤنا ونحن فيه تشعل فتيل الغضب الكامن داخلنا، فنهاجم المدينة لكي نتحرر من خوائنا ونلطخ حرماتها بمحلول اليوريا القذر تاركين لها رائحة عطنة وطرطشات بديعة.

ومرةً أثناء سيرنا في شارع حيّنا الرئيسي مررنا بجوار حافلات نائمة على جانب الشارع، كانت تخص البنك الأهلي، لم

تكن الساعة قد تعدت الثامنة مساءً، وقتٌ غير متأخر في شارع يعج بالحركة، وبمجرد مرورنا بجوار تلك الحافلات اصطدمنا بتلك اللحظة، وعرفنا بفضل رهافة حواسنا أن حافلات البنك هي ضحيتنا القادمة. بدون أن نتبادل الكلمات نظرنا يميناً ويساراً حتى نتأكد من وحدتنا ثم انفرد كل واحد بحافلة يتبول على اللافتة الموضوعة في جانبها والتي تحمل اسم وشعار البنك. وأثناء انهماكنا في نشوتنا التي تضاعفت بفعل السلطة التي نواجهها الآن، سمعنا وقع أقدام ثم ظهر رجل من خلف الحافلة الأولى، لم نحتج لكثير من الوقت حتى نخمن أنه السائق وقد استشعر أمراً مريباً، أسقط في إيدينا فقبضنا على مثاناتنا وانطلقنا في العدو ونحن نضحك بشدة، قبل ان تنقلب الهيستريا إلى خوف يتسلل داخل قلوبنا، ترى مالذي سيفعله السائق إذا قبض علينا؟ هل فهم إننا كنا نتبول فقط أم ظن إننا أردنا سرقة الحافلات؟ وهل نحن الآن تحت طائلة القانون؟ ومالذي أوقعنا فيما نحن فيه؟. انحرفنا إلى الشارع المؤدي إلى المدرسة لإننا نعرفه جيداً، كان السائق لايزال يعدو خلفنا بإصرار، جرينا بأقصى سرعة وتركنا مكتبة الأمانة على يسارنا ثم دخلنا البيت المظلم الذي يليها. وهنا تشرذمت عصبتنا، فقد كنت الوحيد الذي دخل البيت في حين استمر صديقاي في العدو، كان بير السلم مقبضاً، حبست أنفاسي وانا انظر من مخبئي عبر الباب لعلي أرى السائق أو أرى أحد صديقَي، أرهفت السمع، ثم بدأت أشعر بحرقة شديدة في مثانتي، وبتوتر وخوف من أن يصل أحد السكان بالصدفة ويستجوبني عما أفعله.

دائرة صغيرة مُفرغة

أثناء تقليبي في أوراقي القديمة عثرت على هذا المقطع، والذي ينتمي للفترة التي كنت مهتماً أثناءها بالكتابة:

"سأكون ماراً عبر باب الكلية الزجاجي، وستكون هي بالخارج، تتحرك بثقة في اتجاهي، هل ينبغي أن أكون حزيناً حتى تصبح المفاجأة أكبر؟، وستكون مرتدية فستانها الأسود الذي يلف جسدها بحنان ويُظهر ذلك المثلث الصافي أعلى صدرها، سأنحرف أنا إلى اليمين وأسير بضع خطوات وآخذ نفساً عميقاً من سيجارتي، سأنظر بتلقائية إلى القادمة تجاهي، ثم أقف فجأة. أول ما ستقع عليه عيناي هو ابتسامتها ثم سأصعد حتى أعثر على عينيها الجميلتين ثم سأترك نفسي لحظات كثيرة في خدر المفاجأة.

ستقترب مني وتلمس يدي

– كنت في مشوار قريب وقلت آجي أشوفك.

– ..."

أخذت أفكر بشجن في تلك الفترة من حياتي، وأسترجع مبتسماً كيف كتبتُ هذا المشهد. فهو يبدو كحلم بسبب استخدام المستقبل كزمن للسرد وهي خدعة يعرفها جيداً المتعاملون بالأدب، وهو لا

يخلو من المفردات الرومانسية -والتي كانت في عصرها الذهبي آنذاك- مثل تدخين السجائر، الحزن، الفستان الأسود، المفاجأة. أمكنني كذلك التعرف على بعض جُمل كنت أتصور أنني كاتب محترف عند كتابتها، مثل :"يلف جسدها بحنان"، "نفساً عميقاً من سيجارتي"، "ثم سأصعد حتى أعثر على.."، "خدر المفاجأة". كنت أتأمل كل هذا بشئ من السعادة والتأثر بالرغم من خجلي الشديد.

لا أزال أتذكر بوضوح هذه الفتاة، وكيف كنتُ مبهوراً بمرحها وبساطتها. طويلة بجسد رياضي وشعر ثقيل مجعد، سنتاها الأماميتان شديدتا البياض. جمعتنا معرفةٌ سابقة، فقد وقعت ولادتُنا -التي لم يكن يفصلها سوى أشهر- في فترة اشتداد الصداقة بين والدينا، وأسهمت في زيادة التقارب بين العائلتين الصغيرتين. فتبادلت العائلتان الزيارات واشتركتا في رحلات قصيرة إلى الإسكندرية، بل أننا -أنا وهي- قد ارتدينا نفس الملابس ونحن أطفال بعد أن تبادلتها أمهاتُنا لكِبَرِها على أحدنا. وهذا لا يعني أي شئ بخصوص الطبقات الاجتماعية، فكلانا كان ينتمي للطبقة الوسطى في فترة بداية السبعينات المزدهرة.

بعد عدة سنوات كتب أحد أصدقائي ذات مرة :

"باستخدام المقص يمكنك التخلص من اللحظات المؤلمة في حياتك، يمكنك أيضاً قص تلك اللحظات ونسبتها إلى شخص آخر لا تعرفه. لن تذكر اسمه، وربما لن يكون موجوداً على الإطلاق. شخص وهمي. ستفعل ذلك فقط لكي تتمكن من تسجيلها بدرجة

أقل من الألم أو لكي تحكيها لمن تريد. ربما ستحس ببعض الارتباك وسيشعر بعض الأذكياء أن الأمر يتعلق بك، مع ذلك لا يهم، المهم أن تتم عملية القص بألم أقل."

كان هذا هو المقطع الافتتاحي لقصة له تتحدث عن شخص ينتابه إحساس عميق بالوحدة، فتتأرجح القصة بين الحلم والحقيقة محاولةً أخذ لقطات متعددة للشخصية، فمرةً حلمٌ يشعر الرجل فيه بصدره قد خُرق بمثقاب ثم يكتشف بعد استيقاظه أنه مثقوبٌ بالفعل، إلى مشهد الرجل مع حبيبته في الفراش ثم تتقلب الحبيبة إلى عاهرة ماسوخية لها وجه فتاة كان يُكن لها حباً طويلاً صامتاً، يقذف قبل أن يمارس الجنس فتطرده مطلقةً وراءهُ كلباً. تنتهي القصة بمشهد فانتازي لدخول قطار إلي المحطة.

بالرغم من قناعتي بقصور التفسير السيكولوجي للأدب، إلا أنني أجد ما كتبه صديقي يفسر تماماً ما كتبته أنا. فلقد انبهرت بها عندما رأيتها مرةً أخرى أثناء مرحلة الدراسة الجامعية، حيث لم أكن رأيتها منذ سنوات الطفولة، ثم كتبتُ ذاك المقطع الساذج إبّان محاولاتي المستميتة للتقرب منها.

كانت الصداقة التي تجمع والدينا قد خفتت، وانخرط أبي في العمل لسنوات طويلة بالخارج لكي يؤمن حياة طيبة لأسرتنا، في حين استغرق والِدُها في مشاريع عجيبة أخرها إنشاء فرن لحرق الفخار.

تعددَت زياراتي له في منزله اعتماداً على الصداقة القديمة

التي كانت تربط الأسرتين معاً. فهو يراني فتاً ذكياً، وأنا أستمتع كثيراً بحديثه وأفكاره عن الحياة، بالإضافة طبعاً إلى فرصة رؤية ابنته. كان انطباعي أنه مصاب بمس خفيف من الجنون.

في إحدى المرات كنت جالساً على كرسيّ المفضل، الكرسيّ الصغير الضيق والمصنوع من البوص الرفيع، أحتسي الشاي الذي أعدته لي في الكوب الفخاري، مستمتعاً بشمس العصاري الساقطة على كتفي من النافذة العريضة. كانت تحكي عن مباراة الأمس، وأخبرتني كيف استطعن اقتناص الفوز بعد هزيمة محققة من رمية ثلاثية ماهرة قامت بها، كنت أتابع باهتمام بالرغم من معلوماتي القليلة عن كرة السلة التى تلعبها. ثم حكت عن جو المشجعين المرح وصراخهم، والذين ليسوا سوى زملائها من لاعبين ولاعبات جاءوا ليشجعونهن.

جلس والدها على الكرسي المواجه للشلتة التي تجلس عليها، كان يخفي بجسده النحيل جزءً من اللوحة التي رسمتها وهي طفلة. ثم أعطاني سيجارة وقال مستكملاً إن هناك نقطة واحدة في كتلة الطين عندما تتحسسها بيديك تنفتح لك الكتلة وتعطيك تعاريجها وثناياتها لتكوّن الفورم الذي تريد، فلكل كتلة نقطة مختلفة وبازدياد حساسية اليد يصبح العثور عليها أمراً متوقعاً ولكن ليس سهلاً، كان ذلك حديثاً عن صناعة الفخار، وإشارة بطرف خفي إلى أمر الخلق الفني الذي كنا بدأنا الحديث بشأنه، أعجبتني هذه الإشارة فأمّنت برأسي صامتاً. انتظرت هي مخفيةً مللها حتى فرغ من كلامه ثم قالت إنها مضطرة للنزول وإنها سعِدَت بلقائي،

التفتت وهي على باب الشقة بعد أن قبلت أباها وقالت أنها ربما قضت الليلة عند صديقتها.

فشلت في لعب دور الفتى الظريف المنطلق الذي اعتقدت أنها تحبه، فقد كانت أحاديثي جافة تفتقر إلى روح الدعابة، ربما لأنها تعكس حياتي الخالية من الأحداث الكبيرة، وفي نفس الوقت كنت أشعر بأن أحاديثها تافهة بعض الشئ ولكنها مُشوقة، وأستمتع أكثر بأحاديث والدها. وكانت هي على درجة عالية من اللياقة لكي تمرّر فشلي هذا بهدوء، فقد كانت تستمع بتركيز ثم تُظهِر بلطف أنها متعبة أو أن وراءها شيئاً تفعله.

في النهاية قررت إيقاف أيّ اتصال بها، لأنها وعدتني كثيراً بالاتصال كي نحدد موعداً للخروج سوياً، وفي كل مرة كانت لاتتصل إطلاقاً -بدون أسباب- وتتركني فريسة للانتظار. فأخذت الأمر على أنه جرح عميق لكرامتي، واعتبرتها بلهاء مغرورة.

الآن أتأمل فيما آلت إليه الأحوال، وفي القصة التي كنت أود أن أكتبها آنذاك. لابد أن القصة كانت ستتطرق إلى شعوري بالوحدة وحاجتي إلى الغرام، ولابد أنها كانت ستنتهي بمسخي لها إلى عاهرة ماسوخية لاتذهب إلى الفراش قبل أن تُجر من شعرها وتتلقى الكثير من الصفعات على إليتيها وهي تشهق من الألم والنشوة.

النزهة الأخيرة

أنا وصديقي على أطراف العالم نقود سيارة قديمة ونضحك ونحن ننزف.

سألنا "بل هابارد" إذا كنا من كربلاء وأشار إلى الدماء التي تعلو وجوهنا وملابسنا، فأوضحنا له أننا تعرضنا لعملية اعتداء وأننا لن نستطيع أخذ حقنا لأننا نخاف الشرطة، ولإننا لا نستطيع الدخول في مواجهات الآن، خاصةً أن أحداً لن يتفهم موقفنا وسيظنون أن الأمر لا يتعدى معركة بين أشقياء من أجل زجاجة ويسكي مسروقة. فقال إنه في الحرب تحدث أشياء كهذه، وأنه شخصياً قضى ثلاثة أيام في إحدى الجزر وهو ينزف بعد أن قُضي على فرقته بأكملها، إلى أن وصل جندي كنت قد قابلته في إنجلترا، فتعرف عليّ وأراد أن يحملني حتى يخرج بي، إلا أني لم أستطع تحمل الألم والخوف، فقلت له إتركني....إتركني، فقال: لو تركتك هنا لن يعثر عليك أحد، ثم تركني حتى شارفت على الهلاك. فسألناه ماذا يفعل الآن، فقال أن امرأته قد رحلت وإبنته تعمل ممرضة في إفريقيا على حد علمه، وأنه يقضي يومه في لف السجائر وتدخينها على ضفة النهر.

كانت أمي على غير عادتها تطبخ ثلاثة أطباق مختلفة في نفس الوقت بشكل يعيد ذكرى المآدب الكبيرة في المنزل. كانت مبتهجة كثيراً وهي تقرأ في كتابها عن طريقة عمل بعض الحلويات، لابد أنها طريقة عمل الكيكة الإسفنجية.

توصلت لإجابة أكثر دقة للسؤال الذي طرحه عليّ صديقي فقلت له أن لحظات التعاطف بينه وبين صديقته هشّة ومعرضة للانهيار خاصةً بعد الفراغ من الجنس، واستخدمتُ صفة "مخنوقة" في سياقٍ لم أعد أتذكره، ثم نصحته أن يحاول إيجاد قاعدة أكثر ثباتاً تحملُ هذا الحب الذي يشك في وجوده، فابتسم صديقي وقال: من أين أتيت بهذه الحكمة؟.

انهمكنا في حرب صغيرة. كنا نتظاهر بأننا نحارب، كل بطريقته، كانت مهمتنا نقل عربة وقود من مكانٍ إلى آخر بعد ملئها، أخذنا نزحف على بطوننا ونتخفى في تضاريس المكان، تحسّسنا بنادقنا، وحركناها ببهلوانية دون أن يبدو لكل ما نفعله أي داعٍ. عندما اقترب القصف وانتشرت الجثث بالقرب منّا ازداد توترنا، صرخ فينا صديقنا الملازم بأننا يجب أن نلتزم بالأوامر التي لدينا وأن نكمل طريقنا. كان لون الوهج الخارج من مقذوفات الطائرات والدبابات، ولون الحديد المصهور على طول خط النار يقترب كثيراً من لون ثمار الفراولة الباردة.

حتى وصلنا إلى المتجمد الشمالي، نزلنا من السيارة، ودّع كلانا الآخر. سرنا بملابسنا القطنية الخفيفة، وانهمك صديقي في مطاردة أسراب البطريق المرحة حول فتحات المياه وسفوح التلال

الجليدية. بالتأكيد انطبعت أثار حذائي الشمواه على صفحة الثلج الأبيض المتماسكة، وبالتأكيد أيضاً أنها أخذت تتلاشي بفعل الرياح البيضاء التي كنت أسير فيها، والتي تضيف طبقة رقيقة من الندف الثلجية الرفيعة على كل شئ، تتزايد شيئاً فشيئاً.

"

القلب يتكون من أربع حُجرات : الأُذين والبُطين الأيمن، والأُذين والبُطين الأيسر. في النصف الأول من دقة القلب تنبسط العضلة سامحةً للدم بالدخول من ناحيتين: من الناحية اليمنى يدخل الدم المؤكسد غير النقي من الأوردة الزرقاء، ومن الناحية اليسرى يدخل الدم النقي القادم من الرئتين. في النصف الثاني من دقة القلب تنقبض العضلة دافعةً الدم في اتجاهين: الدم غير النقي الموجود في البطين الأيمن يُدفع عبر الأوردة إلى الرئتين ليتم تنقيته، والدم النقي ذو اللون الأحمر القاني الموجود في البطين الأيسر يُدفع إلى أعلى ليتدفق في شريان الأورطى العظيم وتفريعاته ومنها إلى باقي أجزاء الجسم حاملاً سوائل الحياة الغالية.

القلب عضلة في حجم قبضة اليد، وموضعه خلف الضلوع داخل الجزء الأيسر من القفص الصدري. يظل ينبض بحركةٍ لا إرادية حتى تختل الإشارات العصبية المنظمة لحركته.... فيتوقف.

"

الحقول الخضراء

البداية الأقرب إلى الاحتمال هي أنه قبل عشرين عاماً، وأثناء طفولته، احتاج العائل لنقل دم نتيجةَ نقصٍ مفاجئ في الصفائح الدموية. الدم المنقول كان ملوثاً بڤيرُس يدعى "إپشتاين بار"، يسري الڤيرُس مع تيار الدم داخل الأنبوبة الرفيعة ثم ينفذ داخل جسم العائل عبرَ الثقب الدقيق في رسغه، تزداد سرعة الدم عند هذا الثقب فيندفع الڤيرس محاولاً التخفي داخل الأوعية الدموية المتطرّفة. ڤيرس "إپشتاين بار" يكون عادةً على شكل أجسام بيضاوية شفافة لها ذيل رفيع يساعدها على سرعة الحركة، ولا يمكن اعتباره نشطاً حيث أن قدراته الباثولوجية ضعيفة.

الخلايا اللمفية من النوع B لها مطلق الحرية في السباحة داخل الأوعية المختلفة وبالتالي فهي أول من يستقبل الڤيرس. هذه الخلايا شديدة الشراسة، تقترب من الڤيرس لصده عن التوغل، وتحديد هويته باختبار التكوينات البروتينية الموجودة على جداره. بعد ذلك ترحل الخلايا اللمفية من النوع T، وهي خلايا هادئة تشبه بتلات زهرة حمراء، إلى موقع الڤيرس ممدةً خلايا B بذاكرة طويلة من الأجسام المضادة، تفرز بلازما خلايا B

الأجسام المضادة المناسبة وفقاً لهذا الأرشيف، والتي تكون في حالتنا هذه أجسام شديدة الصغر لها نهايتين مدببتين كفكي كلاب. تهاجم الأجسام المضادة الڤيرس محاولة التشبث به ومنعه من الانقسام والتكاثر. المعركة في أشدّها والنصر يكاد يُكتب للمدافعين، لولا أن تخلص أحد أفراد الڤيرس، وفي غفلة من الجميع، من كل مكوناته عدا حامضه النووي، وكآخر أمل له في النجاة تسلل داخل إحدى خلايا B نافذاً عبر جدارها حتى وصل إلى نواتها وطبع نفسه على حامضها النووي، ثم دخل في سبات عميق.

الخطوة التالية هي وصول الخلايا الهاضمة إلى موقع المعركة، وهي خلايا لمفية أيضاً تشبه الدجاجات، تقوم بابتلاع الڤيرس المحاصر والتأكد من عدم وجود أية آثار متبقية، ثم ترحل الدجاجات إلى العقد اللمفية حيث يتم تنقيتها من الڤيرس نهائياً.

المعركة انتهت وكل شئ على ما يرام.

– –

بمرور الزمن يأخذ جسم العائل نصيبه من المواد الكيميائية السامة كأكاسيد الكربون والرصاص الموجودة بوفرة في الهواء والطعام. تتميز هذا المواد بتركيبتها الثقيلة وصعوبة تفكيكها إلى موادها الأولية، حتى أن بعض المركبات تحتاج إلى قرابة الخمسين عاماً لتتم دورة التفكيك. تجد هذه الأكاسيد ضالتها في

الأنسجة الدهنية فتستوطن داخلها، حيث أن الأخيرة تنزع إلى الثبات ولا تعتريها عمليات التحول والتبدل الكثيرة كباقي الأنسجة.

ترقد الأكاسيد في ظلام الأنسجة الدهنية العام وراء العام حتى تتم دورتها، متحولة إلى مواد أولية بسيطة تتراكم شيئاً فشيئاً، وتحدث تغيراً طفيفاً في طبيعة النسيج الدهني، والذي يحدث بدوره تغيراً -طفيفاً هو الآخر- في طبيعة الوسط الكيميائي الذي تسبح فيه باقي الخلايا.

يَندُر أن يترك هذا التغير البسيط آثاراً ملحوظة، ولكن التركيبات الكيميائية الهشّة كالحامض النووي الذي انطبعت عليه آثار آخر أفراد الڤيرس تستجيب بسرعة لهذه التغيرات، فالجينات المشوهة التي رقدت على الشريط الحلزوني منذ أن مسّها الڤيرس تظل صامتة ولكنها تجعل الحامض النووي مفرط الحساسية تجاه التغيرات الكيميائية في الوسط المحيط، حتى تأتي اللحظة -تلك التي لايمكن التنبؤ بها- التي تستيقظ فيها الجينات المشوهة من نومها الطويل، وهي تحديداً جين رقم ٨ ورقم ١١، وتنشط مسببة خللاً هائلاً في وظائف الخلية ونمواً متزايداً في حجمها. من البديهي أن فساد أحد الخلايا لا يحمل تهديداً لاستقرار نظام الجسم، أو زعزعةً لسلطته، ولكن الخطورة تنبع من انقسام الخلية وتكاثرها المحموم، فالخلية المصابة تنقسم وتنسخ نفسها بسرعة وكأنها على حافة الانقراض. الوظيفة الرئيسية للحامض النووي هي توريث الصفات المميِّزة للخلية -والمحفوظة على الجينات- من جيل إلى جيل، وبالتالي فجميع الخلايا الخارجة من الإنقسام

تحمل نفس الحامض المصاب والذي تورثه بدورها للخلايا التي تنقسم عنها، مكونةً جيشاً هائلاً من الخلايا المصابة في ثوانٍ معدودات، هذا العدد من الخلايا المتضاعفة يسمى "الورم الأولي".

- -

يصعُب على خلايا T تَصوّر أن معركة صغيرة مثل معركة "إيشتاين بار" وقد انقضى عليها ما انقضى، وأصبحت مجرد ذكرى محفورة على سطحها، تعود لتظهر بعد عشرين عاماً. فهي تسجل لحيرتها -ودون أن تربط بين الحدثين - أن الورم الذي تحاصره خلايا B بعد أن اكتشفته ماهو إلا خلايا B نفسها ولكنها لا تحمل التكوينات البروتينية المميزة لجسم العائل وبالتالي يجب القضاء عليها. فاندلعت الفتنة، إذ كيف تهاجم الخلايا نفسها، وتتقاتل بنفس سلاحها. إلا أن خلايا B تحسم الأمر وتقوم بالهجوم على الخلايا المصابة مفرزةً أجسام مضادة جديدة لتعادل التكوينات البروتينية الموجودة على جدارها، ولكن عدد خلايا B غير كاف لمحاصرة الورم فجزءٌ كبير من الخلايا مصاب، وكذلك لا تستطيع الدجاجات التي وصلت لموقع الورم ابتلاعه لكبر حجمه، فيطلب من النخاع العظمي مضاعفة إنتاجه من خلايا B وخلايا T للتمكن من محاصرة الورم الطارئ، تستمر المعركة بشراسة، حتى يفقد العائل فجأة عشرة كيلوجرامات من وزنه ويدخل في غيبوبة.

يتشكل الورم من وحدات صغيرة متكررة، كل وحدة تشبه ورقة صنوبر خضراء على مفرش مائدة مزركش بالعديد منها. فالخلايا تتجمع في ثلاث اتجاهات، كلٌ منها مدبّبٌ عند طرفه ومكتنز في نهايتيه، تتحد النهايات المكتنزة مكونةً قوة دافعة، في حين تنتشر الأطراف في اتجاهات متباينة. هذا الشكل الرشيق يتيح للورم سهولة اختراق الأنسجة والإنتشار داخلها بفعل الضغط الميكانيكي.

يخضع العائل للعلاج الكيميائي الذي يتكون من أمبوسيلات الكلور والنيتروجين بمقدار خمسة مللي جرامات يومياً. الجرعات الكيميائية تسيطر بكفاءة على الخلايا المصابة عن طريق منعها من الانقسام، وبالتالي منع نسخ الحامض النووي المشوه، وتعمل أيضاً على تثبيط القدرات الهجومية للورم وتقليص حجمه. إلا أن خطورة العلاج الكيميائي رغم فعاليته الشديدة تكمن في تأثيره على الخلايا السليمة في جسم العائل، فيمنعها من الانقسام والتجدد هي الأخرى، والذي يؤدي إلى سقوط الشعر، أنيميا حادة، وجفاف شديد للأنسجة المخاطية المُبَطّنة للأنف والفم والأمعاء.

حتى الآن لايمكن الجزم بشئ فعجلة الأمل لا تتوقف.

بعد مرور شهرين يسترد الجهاز المناعي عافيته، ويرتفع عدد خلايا B المهاجمة إلى ٥٠٠٠ خلية في الملي جرام الواحد. لكن يصبح الاستمرار في العلاج الكيميائي مستحيلاً نتيجة الأنيميا الخطرة التي يعاني منها العائل، فيخضع لعملية زرع نخاع عظمي، مما يعني اكتساب الجسم مصنعاً نظيفاً للخلايا اللمفية، وتخلُصه من الخلايا المصابة المترسبة في النخاع، والتي تحاول إعادة إنتاج نفسها.

بعد الزرع يتم إنتاج خلايا B وخلايا T بشكل نموذجي، يتبعه إمداد سليم للجسم بما يحتاجه من فيتامينات. تنجح الخلايا المدافعة الطازجة من تكوين حائط قوي ضد تضاعف الخلايا المصابة، وتثبت اختبارات الدم خلوه من الخلايا المصابة مما يعني أن الورم قد اختفى نهائياً.

يستعيد جسم العائل توازنه ويتغلب تدريجياً على الأنيميا. والمثير للانتباه سرعة استجابته، ففي مدة لاتزيد عن أسبوع استطاع العائل اكتساب ٦ كيلوجرامات، كما استعاد قدرته الطبيعية على الحركة، بل وتمكن من ممارسة بعض التمرينات البدنية.

- -

التقرير الذي كُتب بعد ذلك أوضح أن الخلايا السرطانية هي خلايا طبيعية أُصيبت بطفرة مفاجئة جعلتها أكثر قوةً وتطوراً من الخلايا المجاورة، لذلك تنعدم لديها ضرورة الخضوع لنظام جيرانها، وتتقدم معتمدةً على قوتها إلى درجة أعلى في سلم التطور، فتقوم بتدمير التوازن القائم بينها وبين الخلايا الأخرى وغزو هذه الخلايا وابتلاعها.

تهدف الخلايا السرطانية أساساً إلى المحافظة على طبيعتها الجديدة، فتبدأ معركتها الشرسة للتحرر من السلطة المركزية الموجودة في الجسم، جنباً إلى معركتها ضد المحاولات المتكررة لإخصائها ونزع قوتها حتى من قبل أقرانها. كلُ ما يعيقها عن سلم التطور ستدمّره بفوضوية.

هذا الطموح الجامح يتنافى ووجود الجسم كمحصلة لتعاون أنواع مختلفة من الخلايا في العيش بجوار بعضها، مما يحتم إقصاء تلك الخلايا الخارجة عن السيطرة وإفنائها تماماً. وهذا ما حدث.

- -

. يسعى الكبد إلى زيادة معدلات الحديد والكالسيوم لتأمين تغذية مناسبة للأجهزة، واستعادة اتزان الوسط الكيميائي، الذي اجتاحته فوضى شاملة من جراء المدّ الكيميائي القادم من الخارج. والوسط

الكيميائي للجسم يشبه الماء تسبح فيه الخلايا كالأسماك، فهي تتنفس وتأكل وتخرج فضلاتها في هذا الماء، فإذا فسد الماء اضطربت الأسماك التي تعيش فيه، خاصةً الحساسة منها مثل خلايا T التي لاتستطيع التأقلم مع هذه الفوضى، فتصاب بالعماء، فهي تتوهم أحياناً وجود بكتريا داخل الجسم، فتوعز إلى خلايا B إنتاج أجسام مضادة وإطلاقها، وأحياناً أُخرى لاتستطيع التعرف على البكتريا الضارة فتتغاضى عنها، مما يفسر إصابة العائل بنوبات حمى وبرد مستمرة.

في هذا التوقيت بالضبط تطور الخلايا السرطانية ميكانزماً مثيراً للدهشة مستفيدةً من عماء خلايا T، حيث تنجح في تغيير التكوينات البروتينية الموجودة على جدارها -بطريقة غير مفهومة- حتى تصبح متلائمة مع الشفرة البروتينية لجسم العائل، الذي يعني اكتسابها الشرعية داخل جسم العائل، واستحالة إيقافها بعد ذلك لاختلافها أو لكبر حجمها.

هذه الظاهرة المحيرة تدعى: ظاهرة التخفي.

- -

بعد شهرين يشعر العائل ببعض الحمى، فيخضع للاختبارات الباثولوجية التي تظهر انخفاض عدد خلايا B إلى أقل من ١٠٠٠ خلية في الميللي جرام الواحد، وتؤكد وجود خلايا سرطانية.

لقد عادوا مرةً أُخرى. هذه المرة على هيئة موجات تدور في

أنحاء الجسم أو ما يسمى "الطور العابر للأنسجة "، فهي لم تعد متمركزة في نسيج واحد بل تخترق ما يحلو لها من أنسجة بدون مقاوم أو رقيب، فيستحيل تكرار عملية الزرع لأن الخلايا السرطانية لم تعد مستقرة هناك، ويعاد تكرار العلاج الكيميائي عوضاً عن ذلك بجرعة مضاعفة (١٠ملل في اليوم) للسيطرة على انتشار السرطان، النتيجة الطبيعية هي أنيميا حادة وأزمات قلبية متكررة.

- -

إنه الشهر السادس منذ اندلاع معركة "الورم الأولي"، حيث بدأت تعتري العائل تبدلات سريعة، فقد تحللت طبقات البشرة الخارجية عند أصابع اليدين والقدمين تاركةً مادةً بيضاء سهلة الفرك، والأظافر تشققت واسود لونها، أما الوجه فلم يعد شاحباً بل داكناً يقترب من الاسمرار يظهر فيه بوضوح اللون الأصفر الفاتح للعينين واللون الأزرق للشرايين، بالإضافة إلى الصداع العاصف الذي يتحدث عنه أحياناً في نوبات هذيانه.

- -

.بعد مرور ثلاثة أسابيع يفقد العائل القدرة على الحركة والنطق.

اشتدت الاضطرابات وضاعت ذاكرة الجسم. الخلايا المُدافعة

مُستَنفَرة دائماً، تهاجم كل من يقترب منها دون تمييز، فلم يبقَ هناك من يفرق بين الخلايا السليمة والمصابة. واستهلكت الخلايا السرطانية معظم الغذاء السابح في وسط الجسم الكيميائي، حارمةً الخلايا الأخرى من الغذاء، ومخرجةً فضلات سامة. ما تبقى من الخلايا السليمة يسعى إلى التحول إلى خلايا سرطانية ليحصل على غذاء كاف، أو يُقضى عليه إما بيد الخلايا السرطانية وإما بيد الخلايا المدافعة العمياء.

تزحف الخلايا السرطانية بثقة، حتى تصل إلى الكبد.

– –

الصور المحفورة سرعان ما تنفك من أسطح الخلايا وتنفرط كأنها جسيمات متناهية الصغر، ومتناهية السرعة كذلك، تتحرك بحرية في مختلف الاتجاهات، أحياناً تصطدم ببعضها فتزداد سرعتها، وأحياناً أُخرى يحدث أن تتجاور مشكلةً صورة واحدة، ربما تكون من الطفولة، وربما تكون بضعة خطوط ومنحيات. ثم سرعان ما تنحل الصورة الكبيرة إلى أجزائها الصغيرة التي تستمر في حركتها الدائبة، يلاحق بعضها البعض دون فضاء يحدها.

حتى زرتم المقابر

كان يوماً قاهرياً حقيقياً، قائظ الحرارة. تقابلنا عند مخرج محطة المترو المواجه لمحطة قطارات رمسيس. اكتشفنا في موقف "أحمد حلمي" أن الأتوبيس المتوجه إلى "فوه" قد فاتنا فذهبنا لركوب إحدى سيارات البيجو المتجهه إلى دسوق ومن هناك لغير، كما أشار علينا أحدهم، وطال انتظارنا كي تكتمل العربة. لم يقوَ تامر على الصبر فذهب إلى موقف الأتوبيسات ليسأل مرة أخرى. اختفى قليلاً ثم عاد مسرعاً ليخبرنا أن هناك أتوبيس سيقوم الآن متجهاً إلى دسوق، جرينا خلفه حتى لحقنا بالأتوبيس وهو يتحرك، أخذنا أماكننا واستبشرنا خيراً.

لم يكد الأتوبيس يبتعد مغادراً شبرا الخيمة حتى سمعنا طرقعةً ورأينا هَباباً شديداً يخرج من مؤخرته حيث المحرك، فجنح السائق بالأتوبيس إلى جانب الطريق وانطفأ المحرك، أعقب ذلك عدة محاولات لإدارته مرة أخرى باءت كلها بالفشل. ساد استياء وسخط عارمين بين الركاب، خصوصاً الذين كان يرغبون في اللحاق بالجمعة في بنها. نزلنا مع الخلق ووقفنا على حافة الطريق السريع محاولين الاحتماء بظل الأتوبيس من صهد الشمس الساطعة. المحصل والسائق اختفيا عند المحرك محاولين تشغيله.

وبعد نصف ساعة من الانتظار المحموم، تخللها نفثات سوداء متقطعة من المحرك سرعان ما يخمد بعدها، خرج السائق وهو يقطر عرقاً وسواداً وأعلن بحسم أن السير قد قُطع وبالتالي فالأتوبيس لن يتحرك. كان الحل الوحيد أمامنا هو ركوب ميكروباص يقلنا حتى بنها ومن هناك نركب إلى دسوق. بعد عناء شديد توقفت إحدى العربات، وكانت كعادة الميكروباصات في الأرياف عربة مرسيدس موديل خمسينات عظيمة الحجم، أُجريت عليها عملية توسيع في الجزء الخلفي. انحشر ثلاثتنا في الكنبة الخلفية صامتين.

هذه المرة لم يَطُل انتظارنا في بنها، فلقد عثرنا بسرعة على سيارة بيجو متجهة إلى دسوق، نزل ياسر واشترى كيلو عنب وغسله عند نصبة الشاي بمدخل الموقف وعاد. أغلقنا الأبواب ثم شقت السيارة طريقها إلى خارج البلد، طلب منا السائق قراءة الفاتحة وانطلق على طريق دسوق الجديد. توالت المزارع الخضراء مسرعةً من حولنا، قصيرة باهتة الخضرة، ينفذ النظر خلالها حتى يصل إلى خط الزوال، أخذنا نتطلع بعجب ونحن نأكل العنب.

في دسوق كنا مضطرين إلى الانتظار نصف ساعة أخرى حتى تتحرك العربة الذاهبة إلى فوه، قضينا الوقت على الكورنيش القريب من الموقف. سألتُ ياسر عن أحوال أمه الآن، فقال أنها ليست على ما يرام فهي تبكي كثيراً، وتعاني من دبابيس تنغزها في ظهرها وقدميها. طأطأ تامر برأسه مركزاً ناظريه

إلى الأرض.

وصلنا فوه وبعد دخولنا المقابر سأل ياسر عن العم مشرقي، فقالت المرأة الشابة إنه خرج لشراء دخان وسيعود قريباً، فسألها إذا كانت تعرف أين تقع مقابر عائلة خليل فقالت لا ولكن مشرقي سيعود حالاً، تمتم ياسر بحسرة: لم أستطع حفظ الطريق رغم تكرار مجيئي، انتظرنا قليلاً العم مشرقي حتى اقترح تامر أن نبحث بأنفسنا. كانت المقابر تقع بأكملها على الناحية اليسرى من الطريق الأسفلتي الضيق وعلى الناحية اليمنى تمتد حقول البرسيم الخضراء وقرب خط الأفق تظهر أشجار النخيل الفارعة ومنائر الجوامع. مشينا قليلاً على جانب الطريق الأسفلتي ثم انحرفنا يساراً ونزلنا الهضبة الصغيرة التي تفصل الطريق عن المقابر، طرقنا أحد المدقات الواسعة الذي يحده من الجانبين أفنية واسعة ملتصقة، كل فناء يقف عليه باب مزخرف أعلاه بآيات منقوشة، وعبر خصاصه يلوح شاهد قبر. بعض الأفنية يمتلئ صحنها بقصاري الورد مصطفة جوار القبر، وبعضها الآخر تطل منه شجرة أو شجرتان كبيرتان مورقتان، وكعلامة واضحة على يسر الحال تزين أحجار فسيفسائية صغيرة أرضيتها. انتهى بنا المدق مفضياً إلى تقاطع مدقات، مشيت إلى الأمام وتبعني ياسر في حين انحرف تامر يساراً، كان المدق الجديد أضيق من سابقه والأفنية اتخذت شكل حجرات مربعة مغلقة حيث اختفت الصحون وقبعت القبور وشواهدها في الظلمة، تتالت أمام عيني الأسماء وتواريخ

الميلاد والموت وعلاقات القرابة المحفورة على الألواح الرخامية، كنت مضطراً لقراءة كل لوح بحثاً عن إسم عائلة خليل، بعض الألواح متشابهة: لوح أبيض بسيط محفور عليه بخط النسخ، وبعضها الآخر ناصع البياض بخط كوفي وأحياناً ثُلُث، ألتفت لأسأل ياسر عن نوع لوح مقبرتهم، لكني اكتشفت أنه لم يعد يتبعني فقد كنت أسير وحدي تماماً، أخذت المدقات تزداد ضيقاً مع تقدمي، وظهرت لي بعض المقابر وكأنها قد خُرِّبَت أو أتلفها الزمن فقد كانت حجارتها متساقطة وجدرانها مطموسة، وبأرضيتها عدة حُفر مكشوفة. تلك المقابر التالفة كانت شديدة الظلمة تُلقي بالرهبة في النفوس، عندما اقتربت من إحداها لم أستطع تحمل الرائحة الثقيلة التي تفوح من الداخل، فخرجت مهرولاً...

كنتُ أختار طريقي بعشوائية، وأحياناً ألاحظ أني اسير في نفس المدق أكثر من مرة. أحد المدقات أوصلني إلى ما يشبه جدار من المقابر القصيرة يتخللها ممر رفيع لايكفي إلا لشخص واحد، نفذت من هذا الممر فوجدت نفسي في مستوى أعلى واكتشفت لدهشتي أن المدافن مبنية على هيئة مصاطب فالمقابر التالية تمتد إلى أعلى بالتدريج حيث كانت مختفية خلف الجدار الأول، مكونةً دغلاً من المقابر الصغيرة المتراكبة فوق بعضها البعض.

صرختُ:
- تامر أين أنت؟
جائني صوته من ناحية الشرق:
- لا أعرف...هل وجدت شيئاً؟
- أنا الآن فوق المصاطب.
- أية مصاطب؟
ثم جاء صوت ياسر بأنّ علينا أن نتحرك دائماً على طول الطريق الأسفلتي، زعقت:
- هل مقابركم فوق المصاطب؟
- لا.. لا إنزل.
أسفتُ لأنه ليس مدفوناً هنا لأنني أحببت هذا الجزء أكثر من الجزء السفلي، لاحظت أن هناك بعض الألواح سوداء ناصعة مكتوب عليها بخط دقيق ذهبي، لابد أن هذا الجزء هو نواة هذه المدافن، فالأرض هنا زراعية أكثر خصوبة من أسفل وشواهد القبور عتيقة تعلوها مسحة من عز زائل، ولابد أنه بتتابع الأجيال امتدت المقابر وتشعبت شيئاً فشيئاً إلى الأسفل حتي وضع الطريق الأسفلتي حداً لها. لم أقوَ على الاستمرار في قراءة الألواح، أصبحت أنظر إليها فقط، أدهشني أن الدفن في هذا المستوى يتم فوق الأرض وليس تحتها حيث لكل عائلة جدار به فتحات دائرية مختومة بطبقة من الأسمنت أو الجير، كل دائرة تخص أحد أفراد العائلة وبجانبها لوحها الرخامي على نفس الجدار، فيكون الجدار هو أرشيف العائلة كل درج به ملف، فكرت أن هذه الطريقة

أحرص من طريقة الدفن في الأرض حيث تذوب الأجساد في بطنها غير مبقية على أثر. تابعت سيري في الممرات الضيقة الخاصة بهذا المستوى، كانت النباتات أكثر وحشية وتنوعاً، يبدو جلياً كم كابدت لتنفذ عبر شقوق الجدران، ربما لنفس السبب تبدو أيضاً أكثر جمالاً، لم أستطع تحديد فصيلتها، لعلها تنتمي لعائلة الصبار. وصلت إلى حافة المستوى حيث يوجد منعطف صغير يليه ممر صاعد وعلى جانبه بضع قصاري زهور مسقية حديثاً، قررت أن أجلس بجانبها لأستريح قليلاً.

صرخ ياسر:

- يجب أن نسرع، سوف يلحقنا الغروب، سأذهب لأرى إذا كان العم مشرقي قد عاد.

بعد أن فرغنا من الزيارة اصطحبنا ياسر إلى مقهى يعرفه على الكورنيش، كان الجو قد تلطف قليلاً مع غروب الشمس وهب نسيم بخر العرق المتكون على جباهنا طوال اليوم فانتابنا شعور بالراحة. كان ياسر يكبر أخيه بأربع سنوات وكنا نراه من حين لآخر عندما نزور صديقنا في بيته، لم يكن ميالاً بطبعه للحديث، ولم نكن -أنا وتامر- نجيد أحاديث العزاء لذلك كانت تتمدد بيننا فترات من الصمت يقطعها بالتناوب واحد من ثلاثتنا بتعليق على الطريق أو سؤال عن الوقت أو إطلاق زفرة. شربنا شاياً وقهوة، وكان الجو يزداد لطفاً والمنظر يزداد حسناً فقد كنا في مايشبه الخليج، والماء يمتد أمامنا كشبه دائرة يحدها اليابس

على محيطها قبل أن تنفتح الدائرة في نقطة مواجهة لنا تقريباً على باقي النهر، ومن هناك تدخل المراكب الشراعية الصغيرة، تطير فوقها طيور بيضاء كبيرة ويعتليها الصيادون يجلبون كل يوم ما استخرجوه من بطن النهر.

الهجر والحرمان

-١-

ثلاثة رجال يصطفون خلف بعضهم على الطرف الأيسر من الطابور كل صباح، يحيون العلم ثم يعودون مسرعين إلى غرفتهم التي تقع جوار غرفة الأمن.

مجدي أكبرهم سناً -٣٤ عاماً- يعمل نقاشاً، بدأ تجنيده منذ اثنى عشر عاماً إلا أنه هرب لمدة ثمان سنوات سافر فيها إلى ليبيا للعمل، واعتبرت هذه السنين بالطبع مدة غياب. تم تقديمه للمحاكمة العسكرية بعد القبض عليه والتي قضت بحبسه ثلاث سنوات في سجن الوحدة مع العزل. مجدي هو حكمدار السجن، كان دائماً يقول إنه سيخرج في عفو العيد لإنه قضى سنتين من الحكم وأنهم سوف يراعون كبر سنه فيضعونه في اللائحة. لم يأتِ ورقه مع العيد فطمأنه الجميع وقالوا له إنه بالتأكيد سيخرج في عفو أكتوبر. بعد مرور أكتوبر لم يستطع أحد أن يقنعه بالخروج من غرفة السجن، فقد اعتزل الجميع وبقي داخل الغرفة لا يخرج منها إلا لطابور الصباح ثم يعود مسرعاً. قال مجدي أنه كبر ولم يعد يصلح لأي شئ. مجدي غير متزوج.

نبراس في الثانية والعشرين، من الإسكندرية، متخرج من كلية التربية، شاب طويل دمث ذو وجه مريح، كان مسؤولاً عن إحضار التعيين من المطبخ إلى السجن، يُرى دائماً وهو يمشي بهدوء يوزع تحياته على الذين يقابلهم مسبوقة بكلمة أستاذ، لا يحب التهريج أو لعب الدومينو في الكانتين بعكس مجدي. في إحدى لحظات ضعفه قام باغتصاب الفتاة التي يحبها فعُملت له قضيتان مدنية وعسكرية، استطاع أن يحصل على البراءة في القضية المدنية بفضل شهادة حبيبته، أما القضية العسكرية فيُتوقع نظرها في أي وقت. هواية نبراس الآن عمل لوحات من عيدان الكبريت الخشبية على ورق كرتون مقوى يُسَرَّب له من مكتب العمليات، تجد هذه اللوحات رواجاً وسط الحاصلين على إجازات فيهدونها إلى أحبائهم. من المستحيل سؤال نبراس أو التحدث معه عمّا حدث حتى من أقرب المقربين إليه، فهو ينفر من ذلك أشد النفور والجميع يعرفون ذلك ويحترمونه. فقط في إحدى الجمعات جاء شاب طويل لزيارته وحول عنقه كوفيّة حمراء كاروهات، اختلى به لمدة ساعين ثم رحل تاركاً الكوفية، كانت المرة الوحيدة التي يتلقى فيها نبراس الزيارات. لم يعرف أحد من هذا الشاب ولماذا جاء، ولكن يقال إنه من طرف حبيبته.

أشرف فراشة سكندري آخر، وأصغر الثلاثة حجماً. لونه أسمر، مدمن للحبوب المخدرة ويجيد اللعب بالمطاوي. دخل السجن إثر مشاجرة مع شريف ظاظا، لا أحد يعرف التفاصيل ولكن هناك احتمالات قوية بوجود علاقة جنسية بينهما. حدثت

المعركة في مُبيت توفيق(الشهير بحرامي التعيين) إحدى الليالي حيث كان الثلاثة تحت تأثير البرشام المطحون، خرج توفيق ليتبول ثم عاد متأخراً لإنه تاه عن مكان المبيت، حاول أن يدخل لكنه لم يقدر لإنهم أغلقوا الباب عليهما من الداخل، أخذ يضرب الباب بجنون ثم فجأة سمع صراخ من الداخل أعقبه فَتحُ الباب، كان فراشة يغلق نصل مطواته ووجهه مرطب بالعرق وعيناه باردتان، دفع فراشة توفيق من طريقه وأخذ يعدو، بالداخل كان ظاظا يصرخ ممسكاً بجانبه والدماء تنزف منه. أشرف فراشة يرتدي بنطلوناً مموهاً مقصوصاً على هيئة شورت ذي شراشف في آخره، ويقضي يومه متسكعاً أمام باب السجن يدخن. هناك ثلاث كلمات موشومة على ساعده : حرمان، هجر، عذاب.

-٢-

أخبرنا الرجل الواقف بعيداً بأننا يجب أن ننتهي من هذا الأمر قبل مغيب الشمس. مع زيادة العرق والتعب خلع معظمنا ستراته. الذين يرتدون فانلات داخلية تحول لونها إلى بني غامق أثر التراب، والذين لا يرتدون التمعت جلودهم تحت الشمس وظهرت بقايا الأملاح البيضاء عليها. كان المكان خانقاً بفعل غبار الأسمنت والتراب. شرعنا في زرع عروق الخشب والدق عليها بالمطارق الحديدية، ثم نقلنا كميات كبيرة من الطوب والبلاط لفرشها في الموقع، أثناء النقل انزلقت حجرة جيرية كبيرة كان يحملها أحدنا

فجرحت إبهامَه، أخذ يتألم من إصبعه النازف ثم أخرج عضوه وتبول عليه ليطهره فضحكنا جميعاً.

جاءت عربة كبيرة محملة بالزلط والرمل وكان يجب فرشها كلها على الأرض فحمل كل منا فأسه وأخذنا نضرب في الكومة، وقبل أن نوشك على الانتهاء وصلت عربتان أخريتان وألقيتا بحمولتهما على الأرض، أخذ الرجل يصرخ فينا بأننا إذا لم ننتهي قبل مجيء العربة التي ستعيدنا إلى الكتيبة فسوف نقضي الليلة كلها هنا نعمل. كنا نراقب ونحن نضرب بفؤوسنا كلباً يعتلي كلبة بالقرب منا، الكلبة مدكوكة بشعر منفوش يميل إلى البني الغامق والكلب أسود تماماً بقوسين أبيضين أنيقين على أذنيه.

وأخيراً جاءنا تعيين الغداء، حمله إلينا توفيق حرامي التعيين، فأرخينا فؤوسنا وجلسنا على الأرض لنأكل، كان الكلبان الآن في ذروة جماعهما حيث ضمت الأنثى فرجها على عضو الذكر والتفت مائة وثمانون درجة، فأصبح الكلبان ظهراً لظهر بالرغم من استمرار ولوج الذكر الأنثى، علت الزمجرة ونباح اللذة وثارت سحابة غبار أحدثتها أقدام الكلبين العاشقين. وفجأة اقتحم المشهد عصابة قوامها أربعة كلاب شرسة يهرولون تجاه العاشقين، كان يبدو أن ما يحدث لا يروقهم البتة، فقاموا بمحاصرة الكلبين في غفلة منهم وبدأ النزال. لم يكن العاشقان في وضع يسمح لهم بالمناورة فكلاهما ملتصق بالآخر ولا يستطيع الفكاك منه، اشتد الصياح والعويل واختفت الكلاب داخل سحابة الغبار الكثيفة، كان يُسمع آنّات مكتومة ولهاث متقطع مختلط بصرخات

مخيفة، ومن حين لآخر يبتعد أحد الكلاب عن حلبة الصراع ليلتقط أنفاسه ثم يعود مسرعاً. حتى استطاع الكلب الذكر الانفصال عن أنثاه بعد لأيٍ ومشقة، وجرجر نفسه بعيداً ثم أقعى على الأرض يلحس عضوه شديد الاحمرار، أما الأنثى المسكينة فبقيت تصارع وحيدةً أفراد العصابة، مرةً يعتليها أحدهم ومرةً تلقي به على الأرض.

-٣-

لم أستطع تحديد أسباب رَهبَتي من المقدم قائد الكتيبة والتي زادت عن حدها. إنها لا تشبه رهبة الأب أو المعلم، هي رهبة من نوع خاص يَبثُها جنود مراسلته أينما حلّوا. رهبة عسكرية. بل أنها تعدت ذلك وتحولت إلى خوفٍ صريح يزداد باستمرار ولا أستطيع التحكم فيه، لاسيما أني أصبحت على احتكاك مباشر به. فلقد تَحَّسن موقعي في الكتيبة بمرور الزمن والتحقت بمكتب العمليات والمقرب بحكم وظيفته من قائد الكتيبة. كان المكتب يضمني بجانب أشرف والنقيب رضا، أنا وأشرف كنا نتناوب العمل في المكتب تحت إمرة النقيب، وهو يعرض بدوره التقارير على المقدم. حتي حدث أن أُرسِل النقيب رضا إلى دورة تأهيلية فأصبحنا نتلقى أوامرنا من المقدم رأساً. كانت وظيفتي باختصار حصر الكميات الهندسية (من طوب وزلط وخشب...الخ) الموجودة في الكتيبة وطرح الكميات المستخدمة فعلياً في المواقع

التي تبنيها الكتيبة منها دورياً. ثم اطلاع المقدم بالنتيجة، والتي لابد أن تكون صفراً، قبل إرسالها إلى قيادة اللواء. لكن ما يحدث في الواقع هو أن عملية الطرح لا تعطي ذلك الصفر ولكن تعطي رقماً حقيقياً يمثل الكمية المنهوبة. اخبرني المقدم أنني إذا قدمت له تقارير لا تحتوي على ذلك الصفر فسوف يسجنني، وأنني يجب أن أتصرف بأي شكل حتى أضبط التقارير. كان ذلك يعني -كما تعلمتُ بعد ذلك - أن أقوم باختلاق مستندات صرف غير حقيقية وعرضها عليه بحجة أنها غير واضحة ولا أستطيع قراءتها، فيقوم هو بتزوير إمضاء أحد المستلمين ثم يأمرني بضمها إلى تقرير النجاح بعد إخباري بالكمية التي يجب علي إسقاطها. يبدو أن هذه كانت مهمة النقيب رضا، فهو الذي يضع اللمسات الأخيرة على تقارير النجاح.

حاولت أكثر من مرة أن أثبت لنفسي أنني أقوى منه، وأن السلطة التي في يد ذلك المرتشي أمر مضحك بالنسبة لي ولكني كنت أفشل كل مرة يرسل فيها جنود مراسلته للإتيان بي، ثم يتركني واقفاً انتباه ويسمعني سخافات متكررة عن التقارير وعن سير العمل، ثم تأتي النظرة الجانبية التي أكرهها، يعقبها تهديدي بأن أي خطأ في تنفيذ أوامره هي مسؤوليتي الشخصية.

– ٤ –

لم تكن ساعة قد مرت على استلامنا خدمة الشنجية حتى علا صراخ مرعب من داخل السجن. إنه نبراس. كان من المستحيل رؤية أي شئ فالكتيبة غارقة في شبورة كثيفة هذه الليلة، وأنا وسالم نحرس مخزن السلاح الذي تفصله عن السجن أرض الطابور بأكملها. أطفأتُ الراديو الضعيف وصحت على الرجلين الواقفين خدمة هناك لمعرفة ماذا يحدث إلا أن صراخ نبراس كان أعلى من أصواتنا جميعاً، ثم سمعنا أخيراً أن جانبه يتمزق وأنه لا يستطيع التنفس. صرخ فينا مجدي أن نحضر مفتاح السجن. كنا لا نستطيع ترك مواقع خدمتنا حتى لا نعاقب، ولم يكن هناك أحد في الكتيبة سوى الضابط عاشور الذي يصعب إيقاظه، وحتى إن استيقظ فهو لا يقدم ولا يأخر. كان صراخ نبراس مرعباً حتى ظننا أنه سيهلك. صاح سالم على الصول النوبتجي لكي يستيقظ لكن مُبيتَه كان بعيداً. أخذت أصواتنا تتردد بين الخدمات المتناثرة دون أن نرى شيئاً في هذه الشبورة. قالت لنا خدمة الوقود أن نبراس مصاب بمغص كلوي من النوم على الأرض الباردة، وأنه يجب ربط جانبه. نقلنا هذا بسرعة إلى خدمة السجن لكن صراخ نبراس المخيف ازداد.

قذف سالم بسلاحه إليّ ثم خرج من السياج الشائك المقام حول مخزن السلاح بعد أن سب الميري وسبنا جميعاً، واختفى داخل الشبورة.

انهمك مجدي كالعادة في لعب الدومينو، والتي كان يجيد فرعيها البلدي والأمريكاني إجادة تامة. كانت هوايته تحريض الجنود المستجدين لمنازلته وبالطبع تجريدهم بعد ذلك من الأموال التي يقامرون بها. أما سعيد زوربا ومنصور الصوفي ذو الإبهام المربوط دوماً، فكانا يعدان أقداح الأرز باللبن التي يَستطعمُها الجميع لخلو الكانتين من غيرها، فالكانتين يُقدم فقط أقداح الأرز باللبن وأكواب الشاي المُعاد غليه. وبالرغم من ذلك يقبل الجميع على الذهاب إليه، ليس فقط لسماع المسلسل أو مشاهدة المباريات في التلفزيون ولكن أيضاً لتزجية الوقت وتبادل الأحاديث مع الآخرين. وكان أكثر من أُعجبُ بكلامهم هو سالم الشهير بسالم معزة، وقد اكتسب هذا الاسم بعد تكليفه من قبل المقدم برعاية المعزة التي اشتراها ووضعها في الكتيبة، فكان سالم يحضر البرسيم من العزبة المجاورة ويقدمه لها، أو يصحبها في تمشية إلى حدود العزبة حيث ينمو العشب والكلأ، وفي مقابل ذلك يغدق عليه المقدم بالإجازة تلو الأخرى. كان سالم خفيف الدم يحب القفشات، ويحب أيضاً إنشاد الشعر وتأليف الأغاني والأراجيز، بل أنه أرسل مرة بعض الأبيات لمجلة هو وهي فنشروها له في بريد القراء. كان لايخجل من اقتران اسمه بعنزة المقدم بل أصبح يستخدمه شخصياً في الإشارة إلى نفسه. كنا نلعب سوياً طاولة وأحياناً دومينو كفريق.

الكانتين هو قلب الكتيبة النابض، يلتقي فيه العائدون من الإجازات بالباقين، وتُبثُّ على دككه الأخبار والأحوال، وفي جنباته المعتمة تفشى الأسرار وتحاك المؤامرات. يذهب المرء إليه متخفياً، فيرتدي الترنج ويتخذ من فوطته كوفية يلفها حول رقبته وينتعل حذاءً خفيفاً. ثم يأخذ موضعه في إحدى الحلقات حول وابور الشاي التماساً للدفء، فلم تكن البطاطين المهترئة التي تكسو الهيكل الخشبي بكافية لصد هجمات الريح. مع توغل الليل ينساب الدفء محدثاً خدراً خفيفاً، فيصدح المغنون بأناشيدهم، ويُخرِج الظرفاء ما بجعبتهم، وتعلو طرقعات القواشيط ورنات المعالق في أكواب الشاي. لا يعكر صفو هذا الجمع السعيد سوى مقدم جنود المراسلة المرعبين في بعض الليالي وسؤالهم عن أحد الجنود، والذي كان يعني تكليف هذا الجندي بإحدى المهمات الشخصية، أو معاقبته لذنب ارتكبه ولا يعلمه.

بعد انفضاض السامر، أخرُج من الكانتين تلفُني العتمة وأشق طريقي الذي أعرفه جيداً حتى أصل إلى مُبيتي، وألقي نظرة على الكلبة التي سكنت جوار المبيت وعلى جرائها الذين شبّوا، ثم أدخل تحت البطاطين وأنام.

-٦-

يَحُدُّ الكتيبة من الشمَال مقبرة العزبَة المجاورة، وتتمو وسط شواهد القبور آخرُ نخلتين صغيرتين. أما جهاتُها الثلاث الباقية

فتتفتح على الصحراء الواسعة، حيث يسود اللون الأصفر. وتتوسطُ الكتيبة أرضُ الطابور العريضة، يقف فيها الجنود كل صباح ليحيوا العلم المرفرف فوق رؤوسهم. يسارهم المبني الإسمنتي الوحيد على مرمى البصر، مبنى قائد الكتيبة وميز الضباط. ويمينهم مُبيتات ضُباط الصف والصولات المبنية من الحجارة.

في البداية نُصبَ الكانتين في قلب المُبيتات الخشبية التي بناها الجنود ليسكنوها، وأشرَفَ على التلال الرملية المُتكلسَّة عند مؤخرة الكتيبة، حيث يتبول ويتبرز الجميع من خلفها. إلى أن ظهرت أزمة عروق الخشب في مواقع العمل الخارجية، فهدمت مبيتات الجنود ونُقل خشبها إلى الخارج، وأصبح هؤلاء ينامون قرب مخزن السلاح وهواة الهواء البارد منهم فوق غرفة السجن. بعد اختفاء مؤخرة الكتيبة غدا من الضروري تحريك الكانتين إلى مكان آخر، فأقيم في ظهر مخزن المهمات الواقع في الناحية الشرقية. أدَّى ذلك إلى تغيير مسار الحركة الليلة التي يسلكها الجنود الذاهبون إلى الكانتين، وتغيير مواضع وقوف جنود الخدمة على الحملة والمخازن. ولم تكد أرض الكانتين الجديد تمهد بفعل ضغط البيادات حتى تحركَ مرة أُخرى متجهاً إلى وسط الكتيبة بجوار مخازن الحملة لأن مخزن المهمات قد تم تفكيكه لأخذ الخشب، وكالعادة يخلف الكانتين وراءه أرضاً ممهدة مليئة بأعقاب السجائر البيضاء سرعان ماتتيبس وتصبح مملوءة بأشياء مشبوهة كشظايا زجاج، وعلب أدوية فارغة، وآثار أحذية غير مألوفة.

عصفت الأزمة الراهنة بكل شئ في الكتيبة، وتعددت الأماكن التي تختفي تماماً مثل مخزن الكيما ومخزن الإشارة وتلال الطوب والزلط الموجودة في مقدمة الكتيبة، أما مكاتب المالية والأفراد والعمليات فقد أخليت وكُدِّست محتوياتها داخل ميز الصولات، ثم فُككت مواقعها للحصول على الخشب الثمين. ونتج عن ذلك توسع الطريق الممهد المار عبر الكتيبة لشغل الفراغ الناتج عن غياب المكاتب، وأصبح لأول مرة محوراً مستقيماً يصل البوابة بمخزن السلاح وذلك بعد أن تغير مكان طابور الصباح ليقترب من موقع ميز الصولات حيث يخرجون كل صباح.

التهبت حركة سيارات الزِل الضخمة، فلم يكن يمر يوم دون أن تصل ثلاث أو أربع سيارات تنقل معدات وأفرادا، خلق كثير يذهبون ويأتون. لا أحد كان يعلم متى سينتهي كل هذا وسط أنباء تفيد بنقل الكتيبة بأكملها إلى مكان آخر.

-٧-

حبيبي حياتي يا أغلى أمنياتي
بكتبلك رسالتي وبارجو لو سألتي
ماتطوليش غيابي وماتزوديش بعادي
أو حتى على القليل
ماتجرحيش قلبي العليل

قلبي اللي حبك من سنين
وإزاي أعيش من غير حنين
حنين إليك مهما أبعد برضه ليك
بأكتبلك وأقولك.....

سالم معزة – الإسكندرية جليم
رديف ٩٧/٥/٢٥

"

تمرقُ الوجوه العابرة مخترقة الشوارع كخطوط سرعة. يعلق منها مايعلق في اسفنج الطبقة العليا من الوعي، نظرة، شبح ابتسامة، هاجس بجمال، شر كامن، ضمور، استطالة، شحوب، بهاء. يتلقى المرء الإشارة فينطلق محرك الذاكرة محاولاً مطابقة ملامحها بملامح من يعرفهم، بعد ذلك يحاول ساخراً إرجاعها إلى الأنماط الأولية القليلة التي ينحدر منها الناس، تطبيقاً لمقولة أن الوجوه ماهي إلا تنويعات لاتنتهي على مثالها الأول. فإذا فشل في هذا وذاك يعلن المرء بحسم أنها جديدة لايعرفها وذلك عن طريق إهماله التلقائي لها.

سرعة عبور الوجوه تعتمد على السرعة النسبية لتحركنا معاً. بطيئة إذا كان المرء يجلس في مقهى يتابع الشارع، سريعة إذا كان راجلاً على قدميه، وأسرع إذا كان في سيارة متحركة. وهي دائماً تسير بعجلة غير منتظمة، تسرع وتبطء، فجأة يلمح المرء تفاصيل كثيرة واضحةً أمام ناظريه، أو تنهمر عليه التفاتاتٌ عجيبة من زوايا غير مألوفة، وفجأة تختفي التفاصيل تماماً فيتحول الوجه إلى شظية عابرة. هذا التنوع الهائل من الحركات متباينة السرعة ومختلفة الاتجاه هو مايطلق المرء عليه إيقاع المدينة. فينخرط فيه تاركاً نفسه لتقلبات وجوه أصحابها، يتلقى إشاراتها فيهتز لها شيئٌ ما في نفسه.

أما مايدور في الطبقة التالية من الوعي، فهو انبهارٌ مصحوب بحيرة أمام تلك القصاصات التي نزلت عليها. نتفٌ من حيوات مجهولة على شكل علامات استفهام بقدمين، تُخفي -أولا تُخفي- وراءها الكثير. إنفراجة صغيرة تطل منها على حياة الآخرين، صغيرة لدرجة أن تشقّ علينا الرؤية. وهذا هو معيار الألفة، فعندما تذوب الوجوه العابرة في إناء المعتاد الذي لايلفت الانتباه، تتبخر الحيرة ويستطيع المرء النفاذ من الانفراجة، والخدس بحياتهم المتآلفة مع حياته، فهو نفسه قد أصبح وجهاً عابراً ضمن بقية الوجوه. أما إذا غابت عنه الألفة وتمكنت منه الغربة ازدادت خطوط الوجوه العابرة حدةً ووضوحاً، وكأنه قد قفز خارج العالم لوهلة، ليُراقب من جزيرة ذاته المعزولة ما يدور حولها.

"

فيصل - ١

اندلعت في مطلع التسعينيّات معركة بين سامعي الأغاني الشعبية وبين سامعي الأغاني الشبابية، كانت الميكروباصات هي ساحتها الرئيسية. وامتدت بعد ذلك على العديد من صفحات الجرائد والصحف، فثار غبار كثير وزاد اللغط حتى انتهى الأمر بولادة مصطلحي الفن الراقي والفن الهابط. فضُمّت معظم الأغاني الشعبية باستثناء بعض الفولكلوريات إلى سلة الفن الهابط، وماعدا ذلك فقد ألتحق بالفن الراقي أو على الأقل وقف على بوابته.

تمحور الخلاف حول سذاجة ألحان الأغاني الشعبية، وكثرة الارتجالات وحدة التنقلات بين الشجن والبهجة فيها. فتلك الأغاني ليس لها موضوع محدد، إذ يصعب تتبع خيطٍ يضم المفتتح الأخلاقي بالآهات الملتاعة بالضحكات الماجنة والغمزات الخبيثة. مما جعل طبقة المتعلمين سامعي الأغاني الشبابية تقابل ذائقة أرباب الحرف وسائقي الميكروباص باحتقار وعنت شديدين.

فها هو عبد الباسط حمودة ذو الصوت السوقي الخشن يتتبع خطى أستاذه أحمد عدوية في بدء أغانيه عادةً بمفتتح كلاسيكي، فيردد بصوت رزين مقتطفات من الحِكَم المغناة مصحوبة

بترنيمات الليل والعين، ثم سرعان ما يأخذ بتلوين صوته في خفة متغنياً بمقاطع طريفة راقصة، وفجأة ينزل بصوته إلى أغلظ درجات البيز التي تمزق نياط القلوب بشجنها، يتوقف عندها ليتغنى بجزء مأساوي من موال يصف الحرمان أو الهجر أو الغربة، ثم يعود أدراجه بهدوء الى المنطقة المعتدلة التي تهدأ عندها النفس.

وحمودة يحلو له الانعطافات الإيقاعية داخل الأغنية الواحدة، فمرةً واحدة تجده يتوقف عند أحد المقاطع ويأخذ في ترديده بلا انقطاع، مما يشيع قدراً من البهجة، لاسيما عندما يلون صوته المرة تلو المرة في حين يثبت الإيقاع بعد التهابه، وتداعبه الصنوج من حين لآخر. تصل هذه البهجة الى ذروتها عندما يغدر بالإيقاع فيخرج من الترديد بجملة منتشية، أو يقطع الترديد فجأة مطلقاً ضحكة شيطانية ماجنة. يساعده في ذلك الفرقة التي خلفه، فضارب الطبلة الماهر لايجد صعوبةً في متابعة تنويعات الإيقاع التي يقوم بها المغني، وبسطها كأرضية يستطيع فوقها لاعبو الأكورديون والكولة والأورج الكهربائي إرتجال جملهم اللحنية الملائمة لتلك التنويعات. فلا يوجد لحن هنا، بل مجموعة من الجمل التكتيكية التي يُتقنها اللاعبون ويلجأون إليها عندما ينشز ارتجالهم أو عند الانتقال من مقام إلى آخر، وما عدا ذلك فكلٌ يقسّم على آلته كيفما يحلو له، دون أن يخل لذلك الإيقاع.

في واقع الأمر ليس هذا الصراع بالجديد، ففي أوائل السبعينيّات ظهر عدوية بعد هدوء موجة الأغاني الوطنية التي ألهبت ظهور الجماهير، وقدم بصوته القوي مواويل شعبية وأغاني فجة، فأُعتبر على الفور مطرباً تافهاً لايصلح إلا للغناء في الخمارات مع أمثاله من السكارى، وصبّ عليه المتعلمون جام غضبهم واتخذوه رمزاً لانحطاط سياسة الانفتاح وصعود طبقات هامشية إلى قمة السلم الاجتماعي. وانتهي الأمر بنفي عدوية من حظيرة الفن واعتباره رسمياً من الخوارج. لكن الغريب أن عديداً من نجوم التأليف والتلحين في ذاك الزمن، والمشهود لهم بالالتزام والمسؤولية أمثال صلاح جاهين وسيد مكاوي وبليغ حمدي كانوا قد عملوا معه في بعض الأغاني محاولين استثمار صوته القوي في قوالب موسيقية جادة بعض الشئ، إلا أن كل ذلك لم يفلح في جعل ذوق الطبقة المتوسطة يتسامح مع مجون ووحشية عدوية. وفي نفس الوقت اخلص عدوية للمؤلفين العتاولة الذين بدأ معهم كالريس بيرة والشيخ طه وحسن أبو السعود -والذي يلحن الآن لحمودة-، وأعرض عن التمسح وخطب ود الجماهير. فهاهو يخرج بألبومه "قلق"، وهو في عز مجده، وعلى غلافه يبدو عدوية كوغد حقيقي يجلس متكئاً على كنبة وثيرة، تمتد أمامه طاولة عليها منفضة سجائر تطفح برمادها وتتناثر حولها ثلاث علب سجائر فاخرة، مارلبورو وكنت وروثمان. ينظر بلامبالاة إلى الكاميرا، مرتدياً جاكتاً ضيقاً تحته قميصاً ذا ياقة عريضة على طريقة السبعينيات، ويحترق بين أصبعيه عقب سيجارة.

بالرغم من الحظر الأخلاقي الذي ضُرب حوله – فلا تذاع أغانيه في الإذاعة ولا يُدعى للظهور في التلفزيون، وتذكره الصحف بتأفف وسخرية – كانت شرائطه تنفد عند صدورها وتسمع أولاً بأول في أروقة القاهرة وعلى المقاهي والنصبات، حيث أخلص له القوم هناك وتوجوه شاعرهم. فزاد حظ عدوية من الشهرة والغنى زيادةً جعلت الكثير من المطربين يسعون إلى تقليده، وتكرار أغانيه في الحانات والنوادي الليلية. أما الطبقة المتوسطة فبقيت على اعتقادها بأن من يستمع إلى عدوية هو سوقيّ وقح يَحسُن اجتنابه، أو أخرقٌ مشكوكٌ في سلامة ذوقه.

إلى أن تغير كل شئ بعد حادثته الشهيرة في مطلع التسعينيات، حين سقط عدوية ضحية اعتداء سافر من أمير عربي. ففي إحدى الحفلات الخاصة التي يعج بها صيف القاهرة دُعي للغناء على شرف ذلك الأمير في إحدى فنادق الخمس نجوم، وهي على غرار الحفلات الخاصة يكون عدد مدعويها قليلاً وينأى مكانها عن أعين العامة. في الصباح التالي فوجئ الناس بالأخبار التي تفيد بالعثور على عدوية بين الحياة والموت في جناح الأمير، عليه آثار جرعة زائدة من الكوكايين والأغرب من ذلك مقطوع العضو. اكتنف الحادثة غموض مريب، ولم يعرف أحد الحقيقة خاصة أن عدوية دخل في غيبوبة طويلة وتكتمت الصحف على أقوال الأمير لأسباب سياسية. وعندما أفاق فقد القدرة على النطق والحركة وأشيع أنه فقد الذاكرة.

في هذه الأثناء حدث تحول كبير في صورة عدوية، فهو الآن في أواسط العقد السادس من عمره ولم يعد ذلك الشاب الجامح الماجن. ابتلاه الزمن بكارثة لا رادَّ لها، وحلَّ الخراب من بعد ترف العيش. فقابل الناس هذه الحادثة بطوفان من مشاعر الشفقة والرحمة، وأطالوا التعجب في الحياة وغدرها، كيف تعطيك حتى تشبع ثم تأخذ منك حتى تهلك. بل واحتفوا أيضاً بموقف زوجته الشجاع، التي أخلصت البقاء له وباعت كل ممتلكاتها لتصرف على علاجه الطويل حتى وهي تعرف رأي الأطباء بأن عدوية أصبح مجرد كومة عظم.

إلى أن حدثت المعجزة. وخرج عدويه من صمته وشلله، فاستعاد بعضاً من قدرته على النطق والذي لم يسلم من تشوهات في بعض الحروف، كما استطاع أن يخطو أمتاراً قصيرة بدون الاستعانة بالكرسي المتحرك، فالتهبت مشاعر الناس بالتقدير والإعجاب بل والحب الصريح له. وزاد الإقبال على شرائط عدوية بدافع الحنين إلى عصر ولّى وربما التخلص من الشعور بالذنب تجاهه، وكانت الخطوة الحاسمة في إثبات عودة عدوية إلى حظيرة المجتمع هي أن شركة إنتاج الكاسيت الحكومية والمعنية بإصدار موسيقى أساطين الغناء كأم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم حافظ أعادت إصدار شرائطه القديمة في طبعات جديدة.

الآن يظهر عدوية كل يوم في التلفزيون كنجم محبوب، ينتظره الملايين بقلوب محطمة وأعين ملتهبة بدموع الفرح، يتكلم بلسان معوج ويشكر زوجته وجمهوره وكل من وقف بجانبه في

محنته ويَعدُ بأن يظل وفياً ومخلصاً لحبهم، بل وصل به الجبروت أن يقدم لهم توزيعات جديدة من أغانيه القديمة باستخدام إيقاعات عصرية يقوم فيها بالغناء المتلعثم والتمايل بحركات مرتعشة.

فيصل - ٢

في كل الحالات لامفر من الوصول إلى شارع فيصل إذا أراد المرء الإجابة عن سؤال طارق بن زياد المهول. فهو شريان الحياة النابض، تتلقف عرباته أمواج البشر الخارجين من بيوتهم وتلقي بهم في قلب المدينة، يجدّون في طلب الرزق والعيش ويتمون مصالحهم المعطلة ويتسكعون قليلاً في الشوارع، حتى إذا حانت ساعة العودة حملتهم العربات إلى بيوتهم.

تميزت هذه العربات أو الميكروباصات بمكانتها الوسط بين أتوبيسات النقل العام المزدحمة والتاكسيات غالية الثمن. فكان الجميع يفضلون دفع بعض القروش الإضافية والحصول على كرسي في ميكروباص بدلاً من الانتظار والبهدلة في الأتوبيسات. وأصبحت بمرور الزمن الوسيلة التقليدية للخروج من فيصل، فيشير المرء إلى الميكروباص بيده ويحدد في لمح البصر إذا كان الكرسي الأمامي بجوار السائق خالياً، فيسرع إليه ويرتقي العربة ويجلس مسترخياً ينظر بلامبالاة من النافذة ويتابع لافتات المحلات الملونة وهي تتوالى أمام عينه، ويستمع إلى الموسيقى المنبعثة من الكاسيت. ومعتادي ركوب الميكروباص يعرفون قيمة ذلك

الكرسي المجاور للسائق ويسعون إليه، خاصةً في ميكروباص التحرير ذو المسافة الطويلة فيشعر المرء من طول جلوسه واهتزاز العربة المنتظم بخدر خفيف وتنميل يسري في جسده كله، وياحبذا لو كان بجانب الشباك فتهب نسمة لطيفة على ذراعه المتكئ على حافة الشباك. حتى يصل إلى مدخل العاصمة من فوق كوبري قصر النيل فيرى الأسدين الشامخين، والبنايات العالية بأنوارها المتلألئة، والعشاق يتحسسون أيديهم وهم يولون وجوههم نحو النيل المتهادي في سلام.

انتظمت الميكروباصات في ثلاثة خطوط رئيسية : ميدان الجيزة، بولاق الدكرور، ميدان التحرير. الخط الأخير هو أكثرهم رفاهية حيث تتميز عرباته بجودة حالتها واتساعها وبطبيعة الحال زيادة عائدها، أما الخطان الآخران فأقل حظاً حيث لا يعمل عليهما سوى سيارات الفيلوكس القديمة ذات الوجه المربع أو الرمسيس المتهالكة، يقودها سائقون منهكون ابتلاهم الزمن بمهنتهم تلك، يعملون أربعة عشر ساعة يومياً ليسدوا رمقهم بالكاد. لذلك كان من الطبيعي وكعادة كل الثورات أن يشعل هؤلاء الفتيل وليس زملائهم من خط التحرير.

فقد اشتعلت الثورة عشية تولي المحافظ الجديد مقاليد الحكم، والذي قرر وقف تجديد رخص الميكروباصات القديمة، ذلك لإنها غير صالحة للعمل بالإضافة إلى أنها تزيد من تلوث البيئة، وعوضاً عن ذلك نصح المحافظ بشراء ميكروباصات هيونداي ودايو الجديدة التي تقوم المحافظة بالاشتراك مع بنك ناصر

بتسويقها. كان ذلك يعني الخراب العاجل لسائقي الجيزة وبولاق، فحاولوا إقناع رجال الشرطة الذين تولوا تنفيذ القرار أنهم لا يستطيعون شراء سيارات جديدة وأن هذا هو مورد رزقهم الوحيد. وكان ذلك هو الوقت الذي انتشرت فيه الحكايات الغريبة، فيُسمع عن سائق ميكروباص خلع ملابسه كلها في وسط الشارع من ضيق حاله وعدم مقدرته على دفع الرشوة التقليدية للأمين، أو سائق آخر نزل من سيارته عندما أوقفه أمين الشرطة وتمدد في وسط الطريق العام وهو يصرخ: موتيني ياحكومة...اقتليني ياحكومة، فحمله الجنود إلى البوكس والأمين يقول له ساخراً سنفعل ولكن ليس هنا.

وعندما فشلوا بدأوا إضرابهم المفتوح.

امتنع السائقون من النزول بعرباتهم ونقل الناس مضحين بالقروش الزهيدة التي يكسبونها من أجل إجبار المحافظ على التنازل عن قراره ذاك، واشتدّوا في ذلك فكانوا يتجمعون أسفل كوبري الجيزة وعندما يلمحون أحد زملائهم نزل بسيارته وكسر الإضراب يقطعون عليه الطريق ويقذفون زجاج سيارته بالطوب حتى يتناثر الزجاج كالبودرة على الأسفلت، ونظموا من أنفسهم ورديات تجوب الشارع ضماناً لجدية الإضراب. وبالفعل نجح السائقون في إيصال رسالتهم، فقد اختلت الحياة في جنبات شارع الملك فامتلأت الأتوبيسات على أخرها ولاقى الناس صعوبةً شديدة في الوصول إلى أعمالهم وقضاء مصالحهم.

يرى البعض أن المعركة التي دارت رُحاها في شارعنا هي في الواقع معركة بين نظامين اقتصاديين، فمن جانب هناك السائقون على سياراتهم الفيلوكس الألمانية المتينة، التي تعمل بكفاءة رغم قدمها بفضل براعة الميكانيكيين، وهناك من جانب آخر المحافظ الذي انتصر للنمور الأسيوية الصاعدة فقرر تسويق سياراتها الهشة مهما كان الثمن. ولا يرجع موقف المحافظ ذاك إلى وازعٍ ثوري أو رغبةً في دحر الهيمنة الأوروبية بالطبع، فما هي في النهاية إلا أموالهم عادت إليهم بعد أن استثمروها في مصانع آسيا رخيصة العمالة وسوقوا منتجاتها في بلدان العالم الثالث السعيد، ولكن يرجع ذلك إلى إيمان المحافظ العميق بحق جميع مواطنيه في شراء واستهلاك بضائع جديدة طوال الوقت. وهو حقٌ لم يعتده المواطنون ولم يفهموه، لذلك وجب نصحهم وتوعيتهم وإن تحتم الأمر دفعهم دفعاً حتى يلمسوا ما في البضائع الجديدة من جمال.

استمر إضراب السائقين قرابة الأسبوعين وأصبح من المعتاد مشاهدتهم جالسين في مقرهم الرئيسي تحت كوبري الجيزة حليقي الذقون وقد اكتست وجوههم بملامح الجدية، يشربون الشاي ويتشاورون فيما بينهم. يقترب منهم بعض الناس لسؤالهم بأمل متى سينهون الإضراب، فيقولون أنهم ينتظرون ماستسفر عنه المفاوضات مع المحافظ. أما المحافظ فلم يكن سهل المراس فقد قرر تسيير خطوط أتوبيسات جديدة لنقل الركاب، نكايةً بسائقي الميكروباص وتهميشاً لدورهم، فظهرت تلك الخطوط التي تحمل

أرقاماً قدرية كثلاث تسعات أو تسعتين ثمانية أو تسعتين صفر، وكل منها تسير عليه خمس أو ست عربات لنقل أكبر كم من الناس. في البداية حققت الأتوبيسات الجديدة المراد منها إلا أنها سرعان ما تسببت بعد ذلك في اختناق المرور في الشارع كليةً.

كانت تلك الأحداث كافية لجذب انتباه المباحث العمومية، فأُعفي المحافظ من الأمر واستلمت هي ملف الإضراب. ثم شنت حملة اعتقالات واسعة في صفوف السائقين، وأجرت تحقيقات مفصلة بحثاً عن الوجوه القيادية للإضراب، وأُفهِمَ السائقون أن وقت المرح قد انقضى، وأنهم إذا لم ينهوا إضرابهم وينصاعوا للأمر فسيدخلون في مشاكل هم في غنى عنها. فانكسرت شوكة المضربين وحامت فوقهم سحابة اليأس.

وهنا قام باقي المضربين الطُلقاء بارتكاب كفرٍ ما بعده كفر تضامناً مع إخوانهم المسجونين، إذ جمعوا رخصهم في شوال، وهي الرخص الدالة على هويتهم كسائقين، ثم تسلل أحدهم بليلٍ إلى سور مبنى المحافظة، وبين ورديتي حراسة ألقى بالشوال في وسط الفناء.

فيصل - ٣

شارع الملك فيصل يُنسب إلى فيصل بن عبد العزيز الملك السعودي الذي تبرع بملايين الجنيهات أثناء زيارته الحافلة أواسط السبعينيّات، فأُطلق اسمه على الشارع بعد رصفه وردم ترعته. وبيتنا لا يقع بالضبط على شارع الملك ولكن في شارع مواز صغير غير مرصوف هو شارع القائد طارق بن زياد فاتح الأندلس وصاحب مبدأ الضغط الشهير: العدو من أمامكم والبحر من خلفكم فأين المفرّ؟ وذلك بعد أن حرق طريق العودة وهو يواجه القوط على أرض أسبانيا. ويصل بين الشارعين محارب آخر آت من عصر التأسيس وهو خالد بن الوليد، فقد كانت الدولة في أطوارها الأولى عندما برز نجمه فمزق المرتدين وقاتل الروم وانتصر عليهم، ووطد دعائم الدولة لكي ينطلق الفرسان بعد ذلك ضاربين في الأرض معلنين بداية عصر الفتوحات.

شارع طارق بن زياد يتكون من خمسة بيوت تبدو كأنها مكعبات من الطوب الأحمر تتقاطع فيها خطوط الأسمنت المسلحة، وتفضي البيوت في نهايتها إلى الرشاح، والذي كان يبدأ عند ترعة فيصل الرئيسية بأحراش مرعبة تغرق في ظلام حالك، تغزر فيها

عيدان البوص والهيش العالية وتسكنها الجرذان والوطاويط وبعض الكلاب الضالة التي تخرج فجأة من مكمنها، فيتعذر المرور بجوار هذه الأحراش سوى لأصحاب القلوب الراسخة. ثم تقل كثافتها تدريجياً بدءاً من نقطة التقاء الرشاح بشارعنا، فيعتدل مساره وينطلق لتغذية الأراضي الزراعية المنتشرة على هذه الضفة. كانت تكفي بضع خطوات يمشيها المرء بازاء الرشاح حتى يشك أنه غادر المدينة ووصل إلى الريف، فقطعان البهائم تسير على هواها، وحقول البرسيم والقمح الخضراء تمتد على مدى البصر، تعلوها سحابة الغبار المعتادة، وتقطعها من حين إلى آخر بعض المكعبات الحمراء الكابية.

البيت الأول هو بيت الحاج علي ذو الأدوار الستة السامقة، ما أن يراها المرء حتى يعرف أنه عاد فوراً إلى المدينة. والحاج علي مهاجر قديم من الصعيد فتح الله عليه في أعمال السباكة التي يتقنها فاستقدم أسرته وبنى البيت وأجره، إلا أنه احتفظ لنفسه بمحل لبيع مستلزمات السباكة يجلس فيه طيلة النهار. يواجهه بيت فكري وهو يتكون من أربعة أدوار ويسكن مالكوه في الدور الأرضي وباقي الشقق مؤجرة لبعض الحرفيين وصغار الموظفين. يقع بيتنا بين بيت أبو فريد وبيت عبلة، بيت أبو فريد هو آخر بيت في الشارع ويطل مباشرة على الرشاح بناه صاحبه بعد أن هاجر من سوهاج وسكن القاهرة، وازدهرت أعمال المعمار التي يمتهنها فبنى الطابق وراء الطابق حتى وصلوا أربعة، وهو يقارب في العمر والظروف الحاج علي لولا تنازعهما المستمر على زعامة

الشارع. يسكن البيت أولاده وبناته وأسرهم متناثرين بين الشقق، أما الدور السفلي فقد حوله ابنه الأكبر فريد بالاشتراك مع أخيه الخواجة إلى ورشة لإصلاح الموتسيكلات يتجمع حولها كل ليلة لفيف من الأوغاد وأرباب السمر فيسهرون حتى الفجر. وبيت عبلة لايختلف كثيراً عن بيت فكري في ارتفاعه وواجهته الرمادية، إلا أن معظم شققه تبقى خالية على مدار العام ولا تعمر بساكنيها إلا في فصل الصيف حيث يعود العاملون في الخليج لقضاء إجازاتهم.

بعد سنوات الغربة اتفق أبي مع صديق له ربما ورد ذكره فيما بعد على تصميم بيت لأسرتنا، وعلى ما يبدو فان هذا كان حلماً قديماً لكليهما إذ أخرج الصديق المعماري كل فنونه على الورق ووضع خطوط بيت على طريقة العمارة المملوكية: أسقف منحنية، جدران غليظة، تهوية طبيعية، برج حمام، حديقة صغيرة..... وقع الاختيار على هذا الحي الفطري والاقتصادي في نفس الوقت بعد طول بحث، فاشتُريت الأرض. انطلق أبي لجمع نقوده من السعودية ووضعت أمي يدها على قلبها وبدأ العمل.

ومع الوقت بدأ شكل البيت يظهر حيث رُمي الأساس وانتصب الدور الأول بقبائه وسقفه المنحني وشرفتيه المُحليتين بالمشربية، فاجتذب هذا الشكل انتباه ساكني الشارع وثارت أسئلتهم عن ماهية هذا البيت، حتى أن بعضهم رجّح من غرابة شكل المبنى وكثرة منحنياته أن يكون كنيسة، فهرعوا إلى أبو فريد يسألونه عن لغز

هذا البيت باعتباره قبطياً فطمأنهم وقال لهم إنهم كانوا بالتأكيد سيشركونه في البناء إذا تعلق الأمر بكنيسة، ولم يتضح الأمر تماماً إلا عندما سألوا المهندس المعماري فأشار لهم ضاحكاً أن هذا البيت ماهو إلا ڤيلاّ مبنية على الطريقة الإسلامية.

وقبل نهاية العمل انتقلنا إلى البيت لضيق بيت جدتي حيث كنا نقيم. وأعلنت أمي بوضوح عن رأيها الذي كانت تستره: أن ما حدث هو تهريج، غرف البيت صغيرة والغرفة الوحيدة المتسعة يشقها عامود في منتصفها، كيف سنؤثث تلك الغرف الغريبة، أين سنعيش وأين سيعيش الأولاد؟، كيف سنقضي بقية عمرنا في بيت تخلو غرفه من أبواب يغلقها المرء على نفسه، ان هذا تهريج وضياع أموال بدون فائدة. حاول أبي أن يمتص غضبها مشيراً إلى مواطن الجمال في البيت: إلى الأرش الكبير الذي يبرز عن الواجهة في منتصفها تزينه مربعات الزجاج العسلي والأزرق والأحمر ناقلةً في الصباح الضوء الملون داخل البيت، والى نظام التهوية الطبيعي الذي يبرد الهواء في الصيف ويبقيه دافئاً في الشتاء، وإلى الأسقف المنحنية التي تهدأ في رحابها النفس، والى الحديقة الصغيرة التي زرعت فيها أشجار الليمون والتمرحنة. ثم اقترح في النهاية استخدام ستائر عوضاً عن الأبواب واستخدام قطع أثاث صغيرة الحجم. إلا أن كل ذلك لم يقلل من سخط امي ولم يثنها عن قرارها بمقاطعة صديق عمر أبي.

لم يضايقني عدم وجود أبواب في بيتنا لإمكانيات اللعب الجديدة التي يتيحها هذا التصميم فقد جعل غياب الأبواب من البيت

جحراً مليئاً بالأنفاق والممرات وليس شقةً ذات حجرات منفصلة مغلقة. أما ما أثار انتباهي حقاً فهو فتحتان غريبتان في جدار غرفة نومنا، فتحتان دائريتان متسعتان في أعلى الجدار لأسبب واضح لوجودهما، استخدمناها أنا وأختي في البداية كمعبر نقفز من خلاله، ثم توقفنا عن ذلك ونسينا الأمر، إلا أن ألفتي زادت معهما عندما أصبح موقع سريري تحتهما فكنت أنظر إليهما قبل النوم، أما باقي ما ذكره أبي عن محاسن البيت فأخذ مني وقتاً أطول حتى أكتشفه.

كان العمل قد أوشك على الانتهاء في البيت واستقرت أسرتنا فيه متكيفة مع الوضع الراهن، نعيش في الطابق الأرضي المتكون من غرفتين صغيرتين ومطبخ وحمام وبهو يؤدي إلى الحديقة، وننام في الطابق العلوي الذي يحوي غرفة نوم واسعة للأبوين بشرفة بحري، وأخرى صغيرة للأولاد بها سندرة وسرير، ومطبخ آخر وحمام صغير. وفي أحد الأيام ونحن جالسين في الأسفل حيث تتكسر حرارة الصيف القائظة نشاهد التليفزيون ونتغدى بالجبن والبطيخ، لاحظت اندلاق بعض الماء على الأرض، فظننت أن أحد جراكن الماء قد انسكب، فجففته بخرقة ثم عدت إلى مكاني، وبعد دقائق لاحظت أختي نفس الظاهرة، ثم انتبهنا جميعاً عندما اكتشفت أمي أن الماء يملأ الغرفة، فهرعنا لكي نجفف الماء ولاندري ما هو مصدره، وفي ظرف بضع ساعات كان الطابق الأرضي بأكمله يسبح في بحر من الماء يزيد ارتفاعه عن شبرين،

أنقذنا ما استطعنا إنقاذه ثم جلسنا نستريح.. ما حدث ببساطة أن بيتنا كان منخفضاً نتيجة لخطأ في حساب المناسيب، وبالتالي فان مياه المجاري إذا انحبست لأي سبب من الأسباب في مواسيرها، وليس هذا بالأمر النادر، تنشع من عندنا وتملأ المكان حتى يتم فك الانحباسة.

تلك كانت الطامة الكبرى إذ أن ذلك يعني أن ننحشر طيلة حياتنا في الطابق العلوي الصغير. وهنا قررت أمي تولي الأمور بنفسها، فاستبعدت فكرة الاستعانة بالمهندس الصديق لحل ما أفسده حيث أنها فقدت ثقتها فيه، بالإضافة إلى نصيحة الجميع بأنه لا حل إلا الردم لرفع المنسوب وذلك يعني التنازل نهائياً عن الطابق الأرضي. وقررت أنها تريد الآن بيتاً طبيعياً كبقية الآدميين، كان هذا هو وقت المقاول عاشور. اتفقت معه أمي على بناء طابق ثالث متسع بأسقف مستوية وباب في كل غرفة. أُعلنت حالة التأهب وحصرنا أنفسنا في غرفة واحدة بها كل الأثاث. المقاول عاشور نصب السقالات الخشبية وأطاح بالأرش الكبير في منتصف الواجهة لكي يستطيع البناء، وأطاح بفتحات التهوية، ثم هدم الشرفة الشرقية المطلة على الشارع ذات المشربية فانتهى إلى الأبد الشكل السيمتري للبيت، وعوضاً عن ذلك اكتسب البيت طابقاً ثالثاً مستقيماً بأربع غرف وسطح مستو وحجرة غسيل، وواجهة منبعجة تدل على تعاقب طرز المعمار ودورات الأيام.

بعد ذلك أصبح الطابق السفلي بدروماً ثم مجرد قبو لايستطيع الداخل أن يفرد طوله وإلا اصطدم رأسه بالسقف من كثرة ماتم

تعلية الأرض أملاً في إيقاف النشع. أما الطابق الثاني فتحول إلى طابق معيشة يحمل آخر ما تبقى من ذكرى العمارة الإسلامية، غرف نومه تحولت إلى غرفة تلفزيون وغرفة مطالعة تطل على الشرفة القبلية، أكن إليها للقراءة لهدوئها وعزلتها وللعينين الغريبتين اللتان تثقبان جدارها. وأما الطابق الثالث فهو الطابق العملي كل غرفة سرير نوم ومكتب مذاكرة. وهكذا أصبح بيتنا بيتاً يقطع المرء فيه يومياً المسافة من أقصى أطراف القاهرة المملوكية إلى أقصى أطرافها العشوائية.

في الواقع كانت مشاعرنا متباينة إزاء البيت، فأمي شعرت براحة شديدة بعد الانتهاء من البناء والهد، سعدت بالحيطان الأربعة تنغلق عليها، وفرغت بهمة لتعمير البيت من الداخل. أما أنا فكنت انظر إلى الأمور بكلبية شديدة إذ بدا لي مثيراً للضحك أولاً أن نسكن نحن في ڤيلاّ وثانياً أن تنتصب ڤيلاّ في حي كهذا، فالمرء يفهم من كلمة ڤيلاّ أن ساكنيها من ذوي الأصول والمقام الرفيع وليس أسرة متوسطة تحسنت أحوالها الاقتصادية بعد سفر عائلها للعمل، كما أن ڤيلاّ تعني أنها مبنية جوار غيرها من الڤيلل في حي هادئ مزروع بالأشجار كالمعادي أوحي الهرم القديم، أما أن تبنى ڤيلا في حي يفتقر إلى المجاري العمومية وعامر بالبيوت العشوائية فتلك هي المفارقة. كيف يمكن عزل البيت الجميل ذي الطابقين عن الحي المشوه بالخارج، لابد أن خطأ التصميم هو انتقام الحي اللاذع، فيتخذ من بيتنا صدراً رحباً لبوله وبرازه وذلك عندما تنسد المواسير.

أما أختي فبالرغم من أنها كانت تعبر بصراحة عن امتعاضها من البيئة المحيطة إلا أنها كانت الأولى في تكوين صداقات لها في الشارع امتد العمر ببعضها فأصبحت صداقات راسخة، كن يتبادلن الزيارات ويذهبن جماعات إلى المدرسة، وبفضلها دخلت كلمة ڤيلاّ إلى قاموس الحي فاقترن اسمها بكلمة ڤيلاّ لتمييزها عن صغيرات أُخريات يحملن نفس الاسم.

"

كنا قعوداً في العتمة نصغي إلى هسهسة النار التي نستدفئ بها. حتى طلع علينا وحشٌ هائل يتلفت يمينا ويسارا، يشبه ضبعاً يقف على قدمين، فارتعدت أطرافي، وسألت صديقي عن أمره، فقال إن هذا هو وحش اللغة، يقف على المخرج ليفرز الكلمات المتجاورة ويبحث وسطها عن الغريب منها فينقض عليه ويمزقه إرباً، ولا أحد يعلم بأمره في الخارج. ولم نكن من أهل تلك الناحية ولا نشبه أصحابها وقد حانت ساعة سفرنا، فأدركنا أن الوحش طائلنا في التو، وعرفنا أننا هالكون لا محالة، وطلبنا من الله حسن الختام.

فلما دنا الوحش وعيناه تطقان شرراً، خرج علينا طائر لطيف الهيئة وجعل يطير فوقنا ويشير الينا، وكنا ممن يعرفون لغة الطيور فاستمعنا له، فخاطبنا قائلاً ان الوحش يعرف أشكال الكلمات كلها، وأن لا نجاة لنا سوى أن نخاطبه بلغة لايعرفها، فأقبلنا على الوحش وجعلنا نشقشق ونزقزق ونتقافز ونتصايح حتى ذهل الوحش واضطرب، إذ أنه لم يعد يعرف من أي نوع نحن، وأكثرنا من ذلك فظننا أنفسنا طيوراً، حتى جاء الفرج من عند الله ففتح علينا بزلة لسان فطرنا مع الطائرين.

"

المقامة البرلينية

فلما طال بنا الطريق، لجأنا إلى محطة بنزين، نتزود بالوقود ونريح مثاناتنا ونحرك عضلاتنا المتيبسة، حتى انتعشنا فرجعنا إلى السيارة عازمين على إكمال السفر وقطع ماتبقى من مسافة. جلست زوجتي على مقعد القيادة وقد حان دورها، وقبل ان تدير محركها قالت لنلف سيجارة، ففعلنا ثم أعملت المفتاح لنبدأ الحركة، فخرج علينا رجل لانعرف من أين أتى وكان أصلعَ أمردَ يرتدي جاكتاً وأوقفنا، ثم سألنا إذا كنا متجهين إلى برلين، فأجبنا بنعم، فاستعطفنا أن نأخذه معه، فنظرت إلى زوجتي ونظرت إلي، ثم أعدنا النظر إليه، وسألناه إذا كان من قطاع الطرق فقال معاذ الله، فقلنا له اركب، فأسرع وأتى بشنطتين عظيمتين وحشرهما في السيارة وأخذ مكانه جوارهما وانطلقنا.

خيم الترقب والحذر للتو على جو السيارة، فها نحن ذا فجأة مع غريب لانعرفه ولانعلم مقصده، وكان يجلس خلفنا صامتاً لاينبس بحرف، والطريق مظلم لايقطعه سوى عيون السيارات القادمة من الناحية الأخرى كأنها الأشباح. ثم نظرت إلى زوجتي فإذا بها تشعل السيجارة الملفوفة، فأعجبت بإشارتها وفرضها

لعاداتنا في سيارتنا، وما كدنا نتبادل بضعة أنفاس حتى أطل علينا الأقرع برأسه من المقعد الخلفي وقال والله ما أحسنها من صحبة طريق، ثم انتشل السيجارة.

وقع هذا الأمر على هوى الرجل فما أنهينا السيجارة حتى شرع في لف غيرها، وكانت له عادة غريبة في أن يحمص السيجارة قبل أن يلف بها، فتنبعث رائحة غريبة فخفنا مما يفعل فسألته ماذا تفعل يارجل؟ فقال إني أحمص السيجارة حتى تطير الرطوبة فيطيب طعمها، وكان من قالبي الجيم ياءً والسين تاءً على عادة أهل تلك المناطق، ثم قال من يصدق أن الثلاثة أحجار تكلفك الخمسين والستين هناك، فسألته زوجتي عن أي أحجار يتحدث، فقال أقصد الجرامات. ثم طاف بعينه على مافي السيارة وقال: في إحدي المرات ركبت مع أحدهم في سيارة هيونداي ولا أعرف أنه مطلوب، حتى وقع المحظور ونصبوا له كميناً في الطريق ولسوء حظي كان معي بعض الأعشاب فقبضوا علي أنا الآخر لكنهم أفرجوا عني لصغر الكمية. كان قد فرغ من لف سيجارته وأشعلها. فسألته زوجتي عن سبب وجوده في تلك المحطة في تلك الساعة فقال انه ركب مع رجلين في سيارة جولف ولم يقطعا أكثر من ساعة سفر حتى انحرف السائق إلى محطة البنزين تلك وأخبره أن عليه أن ينزل، فسأل صاحبنا وهل بدر مني شئ؟، قال السائق لالسيب ولكنا لانرغب في الصحبة، فطلب منه أن يرجعه مكان ما أخذه حتى يتسنى له العثور على سيارة أخرى، إلا أن السائق رفض، فتسايا وأنزلاه من السيارة

وألقيا بحقائبه.

تبادلنا الأنفاس فسألته ماذا يعمل فقال أنه سقّاف أي يبني الأسقف، وانه كان يعمل في شتوتجارت ثم انتقل إلى هامبورج طلباً للرزق وأقام فيها حتى قلبت له الدنيا ظهرها وابتلته بأهوالها فمرضت ابنته الصغيرة حتى ماتت فقرر الذهاب إلى برلين لعل الحظ يبتسم فتعرف على مجموعة فاسدة من أهل الصنائع وأقام معهم، فضيقوا عليه أسباب الرزق لإنه لايحمل شهادة مثلهم، فقال والحال هذه وجب إكمال السفر، فذهب إلى هايدلبرج طلباً للعلم والشهادة.

لم يكن الأقرع من كثيري الكلام ولكن من كثيري التدخين يحشو السيجارة تلو الأخرى، وكان يحلو له أن يقطع كلامه بدون سبب ثم يوصله من مكان آخر بدون سبب، وله عين باردة كالزجاج. جلست في مقعدي أتفكر فيما قاله وأحاول أن أعرف أي نوع من الرجال ذلك الجالس خلفي، فيما استمرت زوجتي تخوض بنا الطريق المظلم وكنت أنظر في عينيها من الحين إلى الآخر لأعرف إذا كانت قد تعبت، ثم انتهزت فرصة انبعاث الموسيقى من الكاسيت وسألتها بصوت لايسمعه سواها ماذا ترى فقالت انها لاتفهم كل مايقوله وانه لايفهم ما نقوله وانه بالتأكيد يفكر أي نوع من المعاتيه نكون.

طالت المسافة فتخيلت السيارة مركبة فضائية قد ابتعدت عن الأرض وأخذت تتهادى حتى وصلنا سطح القمر، وأنا وزوجتي أخذتنا الدهشة مما لم تقع عليه عين بشر من قبل وإذا بنا نخرج

من المركبة لنمرح وسط التلال والوديان الفضية. ثم تذكرت الرجل فعادت إلي مخاوفي ففكرت بيني وبين نفسي ماذا سأفعل إذا لعب الشيطان برأس ذلك الأقرع وحاول مهاجمتنا وكيف سأدافع عن زوجتي وعن نفسي، ومع السيجارة الخامسة طرقت رأسي الفكرة. ثم التفتت إليه وقلت له لماذا تحمل كل هذه الأمتعة وأنت لاتعرف ماذا ستركب، فضحك ضحكته البلهاء وقال أخبركم الحق فأنا أنقل بيتي، قلنا في نفس واحد ماذا؟، قال نعم أنا أنقل بيتي من هايدلبرج عائداً إلى برلين فقد حصلت على الشهادة الفنية وأحد معارفي قبل أن أقيم عنده، وأنا لا نقود لدي فأنزل كل أسبوع إلى هايدلبرج وأحشو حقيبتيّ بما تيسر ثم أخرج على الطريق. في إحدى المرات ركبت مع اثنين في سيارة جاجوار سوداء، وما أن فتحت الباب حتى تصاعدت الرائحة إلى منخاري فقلت ماهذه من رائحة؟ فقالوا أو تضايقك؟، فقلت معاذ الله أقبلوا علي بها، وكان الرجلان ممن يحفون حواجبهم ويكحلون أعينهم فدخنا حتى طاب لنا السفر وقالا لي لماذا لاتأتي معنا إلى ميونخ فلنا جماعة هناك، فذهبت معهم وقضيت ثلاثة أيام في النعيم مقيم، آكل وأشرب وأدخن ولا أعلم أين أنا، حتى انقضت المدة وعدت إلى الطريق السريع وهكذا حال الدنيا.

لاحت في الأفق الأنوار فاستبشرنا خيراً، وقام الأقرع يلف سيجارة أخيرة احتفالاً بسلامة الوصول. وفتحنا نوافذ السيارة لتغيير الهواء. ودخلنا المدينة من جنوبها فرأينا برج التليفزيون

ومبنى البلدية والأستاد الأوليمبي، ورأينا المحلات المضيئة ولافتات الإعلانات المبهرة حول مركز التجارة، ورأينا السعادة ترتسم على وجوه الناس وهم يشترون حوائجهم أو يعبرون الإشارات، رأينا سيارات الشرطة الخضراء وطائراتها الهيليكوبتر تجوب الآفاق، رأينا أضواء النيون الصاعقة تحمل عبارات الترحيب، ورأينا قطار الضواحي يعبر الجسر المعلق.

أطفأت زوجتي المحرك ونزلتُ أساعد الرجل، وما ان انزل حقائبه من السيارة واستقام مودعاً حتى واجهته وقلت له انت أبو الفتح لقد عرفتك فقال ما أنا بأبي الفتح، فقلت ومن تكون، قال:

انا ابو قلمون
في كل لون اكون
إختر من الكسب دوناً
فإن دهرك دون
زجّ الزمان بحمق
إن الزمان زبون
لاتكذبنّ بعقل
ما العقل إلا الجنون*

* (الأبيات من المقامة المكفوفية للهمذاني)

الأول من مايو

ارتقينا تباعاً السلم المستند على السور المعدني حتى وصلنا إلى نهايته. لم نصدق المفاجأة. تشبثنا بحافة السور ورفعنا أنفسنا بقدر مانستطيع ثم مرجح كل منا إحدى ساقيه بسرعة إلى الناحية الأخرى واستند بمؤخرته لحظةً على الحافة الرفيعة للسور، ثم نقل الساق الأخرى إلى الناحية المقابلة وترك جسمه يمتد قدر الإمكان بإزاء السور حتى يخفف من وقع القفزة.

وما أن عبرنا السور وسرنا قليلاً حتى تسللت السكينة إلى قلوبنا، فلقد دخلنا باحة خلفية يسودها الهدوء والصفاء. شعرنا أننا انتقلنا إلى مدينة أخرى بقفزة واحدة، واختفت خلفنا الأصوات الهادرة وضجيج طائرات الهيلوكوبتر، وظهرت الأشجار بل أننا سمعنا زقزقة بعض الطيور على أغصانها. تقدمنا في المسير حتى وصلنا إلى ساحة صغيرة مخصصة للعب الأطفال، كانت الساحة تطفو على أرض رملية وكأنها الواحة في قلب البيوت الأسمنتية. تنتصب فوقها أجسام معدنية وخشبية تتصل ببعضها عن طريق وصلات خشبية مربوطة بألياف غليظة مثبتة على الأرض. عندما دخلنا الساحة لم يكن فيها أطفال على وجه الإطلاق، لم يكن هناك

سوى أربعة من البالغين، ثلاثة رجال وامرأة، وقد صعدوا فوق إحدى هذه الوصلات ووقفوا يتحدثون ويدخنون.

كنا نمشي بصمت وقد غرق كل منا في أفكاره. لقد كنا محظوظين في النهاية. أنا الآخر كنت أفكر في نفسي. بل لم يكن يدور في خلدي أي شئ سوى نجاتي الشخصية. سلامتي التي رُدت إلي بفعل الصدفة. دون التفكير فيما حدث للآخرين. في لحظة واحدة يصبح المرء مستعداً للالتحام بهم دون أن يعرفهم مصوباً ناظريه نحو الهدف البعيد المشترك، تصبح منازلة الأخطار متعةً مسكرة. حرب صغيرة. كرّ وفرّ. لاعجب إذاً أن يفيق المرء بعد أن تتشرذم الجماعة، فيعي مكانه الضيق ويعود إلى وحدته الأبدية. لابد أن منظرنا الآن يثير الضحك. ثلاثة فرسان بلهاء ضلوا طريقهم ودخلوا واحة مسحورة.

كانت ساحة اللعب محاطة بالبيوت باستثناء الناحيتين الشمالية والشرقية، حيث يوجد حائط حجري يفصلها عما خارجها. مسحنا المكان جيداً بأعيننا ثم سألناهم أي الناحتين توصل إلى الشارع المقابل، حيث تعذرت علينا الرؤية، فقالوا إن الناحيتين مغلقتان، فحائط الناحية الشمالية يليه حائط آخر لا قبل لأحد بتخطيه لفرط ارتفاعه، أما الناحية الشرقية فمن يقفز فوق حائطها يعود إلى قبضة الشرطة.

أردنا التحقق بأنفسنا فتسلقنا الألياف المتشابكة المؤدية إلى القمة التي يقفون فوقها وأخذنا نجيل النظر فيما حولنا.

-قبل ذلك بساعتين:

كنا نتمشى أنا ورائدة الفضاء في حديقة ماريانن بلاتز العامة وقد امتلأت بالناس من مختلف المشارب، واصطفت على أطرافها بعض الحوانيت والأكشاك سريعة النصب، تبيع المأكولات والمشروبات والغريب من الحلي والملابس، بالإضافة طبعاً إلى زاد الثورة: مؤلفات روزا.. ملصقات تشي.. كتاب كيف تصلح دراجتك بنفسك.. كتاب ما هي الفوضوية.. البيان التأسيسي لحزب الأحرار المجهولين...الخ.

تسكعنا بين المعروضات ثم شعرنا بالجوع فاشترينا سندوتش شاورما وعلبة كوكا كولا واكملنا طريقنا وسط الناس. مرت عيني على وجوه الجالسين والمضطجعين على العشب الأخضر ووجوه الكلاب المختلفة التي تدور بينهم، فهناك كلاب البانكس وهي كلاب ذات طلعة مهيبة كأصحابها، فالبانكس ناسكون بدون زهد، اعتزلوا المجتمع وخرجوا عليه، يرتدون ملابس رثة بوجوه قذرة وعيون بهية يقضون أوقاتهم في شرب البيرة والتسكع، يتسولون الطعام لأنفسهم ولأصحابهم، تبدو كلابهم نحيلة وسعيدة رغم شظف عيش أصحابها. وهناك كلاب الشباب، وهي عادةً متوحشة فظة تكشر عن أنيابها في أقرب فرصة، تكمل بدقة سذاجة الصورة، فصاحبها عادةً مايكون مراهقاً أو مراهقة بوجه لبني يجر بجانبه ذلك الوحش المخيف، والمعنى واضح. هناك أيضاً الكلاب الصغيرة يجرها أصحابها من العجائز والمتقاعدين ناخبي الحزب المسيحي الديموقراطي اليميني، كلابهم أنيقة مثيرة

للإزعاج، تكاد تخشى أن تدهس أحدها دون أن تراه، وهي كلاب غير مريحة على العادة، لا تسمح لك بالتعاطف معها ضد العلاقة النفعية الجائرة التي تربطها بأصحابها بل تشعر انها تسمتع ببرود بتلك العلاقة وتنظر لك نظرة متحفظة.

كانت رائدة الفضاء تتقافز بين البشر وقد أُصيبت على عادتها بالمرح لرؤية الناس. فما أن يتحسن الجو ويخرج الناس للتريض ويلهو الأطفال حتى ترتفع معنوياتها ويعتدل مزاجها. كانت تشبه فراشة بين الحقول في حين كنت أود أنا أن أشبه كلباً من كلاب البانكس.

وسط الجالسين على الحشائش ميزنا ميرلا وفيليب مضطجعين، وكنا قد تعبنا قليلاً فأقبلنا عليهم وسلمنا وجلسنا، لم نكن قد رأيناهم منذ فترة بالرغم من سكننا نفس الحي، سألناهم عن صديقتهم الكولومبية فقالوا إنها لاتزال بدون أوراق وأنهم كادوا ان يقبضوا عليها في المترو، ثم قاموا بتعريفنا على صديقهم أكسل الجالس معهم. تحدثنا عن قرار البلدية بمنع المظاهرة التقليدية لجبهة مناهضي الفاشية بدعوى عنف أفرادها، وسماحها بمظاهرة للنازيين الجدد. قال أكسل أنه حضر مظاهرة النازيين واشترك مع آخرين في محاولة تعطيل مسارهم، ثم متابعتهم إلى محطة القطار وإلقاء الحجارة عليهم. أمّنا جميعاً على غرابة قرار البلدية.

بعد ذلك بساعة:

تمام السادسة. خرج المتظاهرون الغاضبون من الميدان الملاصق للحديقة العامة ضاربين عرض الحائط بقرار المنع، ومعلنين أن هذا يومهم وليس يوم النازيين، وإن كانوا سمحوا للنازيين بالتظاهر فهذا لأن الدولة نازية مثلهم. أما الشرطة فقد استعدت جيداً لكل الاحتمالات، فلم تمض بضع دقائق حتى كان المتظاهرون محاصرين من قبل أرتال من رجال الشرطة ومدفوعين لدخول الحديقة العامة.

اختلط الحابل بالنابل فأسرع أصحاب الأكشاك بلم بضاعتهم، وهرع الآباء إلى أبنائهم الصغار قبل أن يضيعوا بين الأرجل، وتوقفت الموسيقى المنبعثة وحل مكانها أصوات تكسير وتهشيم وصراخ. ثم جاء صوت متحدث الشرطة من مكبر الصوت وقال إن الشرطة هنا لتنفيذ الأوامر وعلى الجميع الالتزام بفض التجمع ومغادرة المكان على وجه السرعة. تدافع البشر على المخارج. تحولت الحديقة العامة التي أصبحت شبه خالية الآن إلى ساحة قتال يصول فيها المتظاهرون ويجولون، متخذين من الأشجار دروعاً لهم. خرجنا بسرعة مع الخارجين حتى وصلنا إلى مدخل عمارة يعصمنا من الخطر. قال أكسل إنه سيعود إلى الحديقة ليرى مايمكن عمله وتبعه فيليب، فقلت لصاحبتى أن تعود الآن إلى المنزل مع ميرلا ولا تقلق.

اشتدت حدة المواجهات. وبدا خط التماس القريب من المخرج

الجنوبي وكأنه مشهد من الانتفاضة. طائرات هيلوكبتر تحوم في السماء، شباب صغار السن ملثمو الوجوه، رجال شرطة مدججون، قاذفات مياه هائلة الحجم. كانوا يتقوسون ويمرجحون أذرعهم قاذفة بأحجارهم تجاه رجال الشرطة المحتمين خلف قاذفات المياه المصفحة والتي لاتبعد سوى خمسة أمتار عن المنتفضين. يصيب أحدهم تيار الماء القوي ويطرحه أرضاً فيسرع زملاؤه لسحبه بعيداً عن خط التماس، وفي نفس الوقت يمدون الآخرين بما اقتلعوه من حجارة الأرصفة بأظافرهم. أما باقي المتفرجين فقد أحاطوا خط التماس بهلال كبير وطبقوا أذرعهم فوق صدورهم، وأخذوا يراقبون ما يحدث من مسافة آمنة باهتمام وكأنهم في حفلة موسيقية تذاع في الهواء الطلق. وعندما أصابت حجرة مرمية بغل هدفها وحطمت زجاج أحدى القاذفات خرجت صيحات الإعجاب من حلوق المتفرجين.

أخذتني الحماسة وتعاطفت مع المنتفضين وتحشرج صوتي بسب الحكومة والنظام والفاشية وكل أعداء الإنسانية. ساعدت الآخرين في نقل الأحجار مكعبة الشكل إلى الأمام، وقمت بقذف حجرين طائشين وصلا إلى يدي من واحدة كانت تقف بجواري.. ثم قادنا أكسل إلى قرب مركز عمليات المنتفضين لنرى عن قرب. مر بجوارنا شخصان يحملان أحد الجرحى وهو ينزف من رأسه، ورأيت طفلاً يصرخ باحثاً عن والديه. والذي فهمته أن أكسل ذا باع طويل في تلك الأمور ويتصرف كرجل محنك إذ أنه أحضر معه منديلاً يُربط على الأنف ليحمي من الغاز المسيل

للدموع، وكان طويلاً يجيل ناظريه في الميدان فيعرف الجهة التي تأتي منها الشرطة. قال إن أهم شئ أن لايفقد المرء أعصابه، عليه بالهدوء دوماً.

وصلت الأمور إلى ذروتها عندما اقدم المتظاهرون الغاضبون على تخطي الخط الأحمر الأخير للشرطة، إذ قاموا بقلب إحدى السيارات جاعلين منها متراساً يسد الطريق واضرموا فيها النيران، وهنا ظهر نوع آخر من الشرطة، كانوا يرتدون الأخضر الكامل على عادة حرس الحدود ولكن على رؤوسهم خوذات رمادية غامقة ذات إطار أسود، وأخذوا يزحفون وهم يصيحون صيحات همجية، مما أصاب الجميع بالهلع فمن ينظر إليهم يعرف ان هؤلاء لايمزحون.

كان هروب المتظاهرين أشبه بانهيار جبلي مباغت، فهاهي الصخور الراسخة تنجرف فجأة بأقصى سرعة إلى الأسفل مصطدمة بأكبر عدد ممكن من الصخور الأخرى لتنزعها من مكانها وتلحقها بالموجة الهادرة التي لاهدف لها سوى الارتطام العنيف بالسفح. وكانت رائحة الخوف تتناقل بين أنوفنا ونحن نجري جميعاً في الاتجاه المعاكس. صغرت المسافة التي تفصل فرداً عن فرد تحت ضغط سرعتهم الهائل، وأصبحنا جزءاً من جسد كبير متحرك على وشك التفسخ، كل يصارع لنجاته الشخصية. نهرنا أكسل من الانسياق وراء الحشود المتقهقرة، وأوضح أن ذلك بالضبط مايريده رجال الشرطة: أن يحصرونا في مربع ويغلقوه علينا، يجب علينا أن نسير في الاتجاه المعاكس.

لكن من يستطيع الهدوء والمثول للتعليمات وسط الهرج والمرج المخيف وزحف رجال الشرطة الهمج؟.

قال أكسل لقد انتهى الأمر. جلسنا على الأسفلت مع قرابة مائة شخص هم آخر فلول المتظاهرين جمعهم حظهم العاثر في ذلك المربع الذي يطوقه رجال الشرطة من كل اتجاه. لاأحد يعلم مالذي سيحدث. سأل فيليب أكسل مالذي سنفعله الآن، فقال ببساطة لا أدري يبدو أننا أسأنا التقدير ويبدو أننا سنقضي الليلة هنا حتى يأخذوننا واحداً واحداً إلى القسم، اغتظت من حديثه هذا بعد أن كان يتحدث كقائد طول الوقت.

مرت ساعة ونحن على ذلك الحال. كلما اقترب أحد من حائط الشرطة لكي ينفذ منه جابهوه بعنف ودفعوه إلى داخل الكردون، قام البعض بالغناء وشرب البيرة، وأصبت أنا بالملل وخفتت تدريجياً حدة الحماسة ووددت لو انتهى الأمر الآن وعدت إلى منزلي. رأى فيليب ثغرة في حائط الشرطة، إذ كانت هناك مسافة متر أو أقل بين رجلي شرطة يقفان بحذاء سور خشبي صغير يفضي بعده إلى سلم طويل مستند إلى سور معدني، رمقنا الثغرة وراقبنا أحد الأشخاص وهو يتسلل منها دون أن يكلمه رجلا الشرطة، تعجبنا من ذلك ثم قررنا أن نجرب حظنا، وهنا تباطأ أكسل وقال إنه لايستطيع، فقلت له وقد نفد صبري ماذا؟ ماذا تقول؟، فقال انه لايستطيع القفز من فوق الأسوار، فقلت له اسمع! إنك تتحدث طوال الوقت كأنك ثوري قديم، وتعليماتك السديدة هي

التي أوصلتنا إلى مانحن فيه والآن لاتستطيع أن تقفز فوق السور، فقال أنا لم أجبرك أن تتبعنا ولم أدعو الشرطة إلى هنا، تدخل فيليب وقال اهدأوا الآن يارجال، ليس هذا بالوقت المناسب، علينا أن نتدبر الأمر بهدوء.

ضاحية التاريخ

تطلعتُ إلى الضوء القادم من الشرفة الصغيرة، الذي يتسلل عبر أغصان شجر الغابة المحيطة. ضوء رمادي محايد، لايُعبر عن زمن، يمكن أن يكون إعلاناً عن صباح باكر أو وداعاً لغروب متأخر، أو حتى ساعة عادية في يوم تلبدت سماؤه بالغيوم. ضوء ثابت كأنه الأبدية.

قال الرجل ان لديه واحداً وثلاثين عاماً.

التفتت إليّ قائلة: ضاحية هادئة أليس كذلك؟ انعزلتُ فيها منذ خمسة عشر عاماً. لاأقدر على ضوضاء المدينة. هل تعلم أن في قلب هذه الغابة المسالمة مستشفىً أمر هتلر ببنائه لاستقبال مصابي الحرب المعطوبين؟. مكان مستتر معزول، يصلح لتجميع رفات الجنود الحي، فلا يُتاح لأحد رؤية الأبناء الأعزاء وهم يعودون خائرين مبتوري الأطراف مفقوئي الأعين محروقي الجلود. يقضون هنا أيامهم الأخيرة ممنوعين من أي زيارة، حتى لا يتسرب الشك إلى نفوس الشعب المؤمنة. هذه هي ألمانيا. وابتسمت.

تطلع إليها الرجل وقال إن المرة الأولى التي أعتقل فيها كانت في سنة ١٩٨٨، وعمره ستة عشر عاماً، أثناء سيره في مظاهرة ضد الاحتلال. وكان يُبقي على شعرة معاوية بين نظرته وعينها الميكانيكية، فكان يتطلع إذا شعر أنها لاتراقبه ثم يطير بنظرته سريعاً عندما يشعر بنظرتها، فيعلّق عينيه البنيتين الرائقتين المكتنزتين على شئ ما مرتفع ومن هناك تبدآن بالدوران في الغرفة.

فجأة لعلعت طلقات الرصاص. زخات متتابعة ثم منفردة. واضحة وقريبة. اقتربتْ من النافذة بوجل ورأتْ شُهباً حمراء رفيعة تشق الظلام الدامس. انتابها الخوف، وجاء صوتها مرتبكاً ضعيفاً، فضحك هو وقال لاتخافي اقتربي وتطلعي، أنها ليلة عيد الميلاد لاعجب إذاً أن يمطرونا بوابل يفوق الحصة اليومية.

غرفتها كانت صغيرة تعج بالكتب وشرائط الفيديو، يفصلها عن الشرفة الصغيرة باب زجاجي. امرأة وحيدة شارفت على الخمسين. تقوم بعمل أفلام تسجيلية، وتبتسم بعد كل جملة. بدا واضحاً من حديثها المستمر عن الماضي الألماني وأهمية مواجهته وليس الخوف منه أو تجاهله أن ما يحوز انتباهها فعلاً ليس الصورة، ولكن الجملة السياسية التي تُسَخر الفيلم لديها كخادم.

شعرَ بحاجة إلى وقفة فأخرج علبة سجائر مارلبورو وعزم بها، ثم أشعل سيجارة ووضعها بين شفتيه الداكنتين أثر التدخين. ومسح بيده على صِلعته الخفيفة.

أكمل الرجل حديثه وهو جالس على مقعده فقال إن المرة

الثانية التي سُجن فيها كانت في العام التالي، اقتحموا البيت ليلة العيد فلم يعثروا علي، فقد كنت عند عمي، فأمسكوا بأبي وضربوه حتى يدلهم على مكاني، ورأيت سياراتهم تجلجل قادمة تجاه بيت عمي، وعندما رأيت أبي يُساق مهاناً ذليلاً، رفضت أن أهرب رغم استطاعتي، وظهرت لهم حتى يتركوه يقضي العيد مع أبنائه. طاقم التحقيق يتكون من ثمانية أفراد، لايتحدثون كثيراً. سألوني أولاً إذا كنت سأعترف. ثم بدأوا بدق رأسي في الحائط الأسمنتي بجنون، ثم ركلوني في معدتي حتى سقطت فتدافعت الأيدي والأرجل تجاهي. بعدها أفقت عارياً في ساحة مفتوحة تهطل فيها الأمطار بغزارة وأنا لا أقوى على الوقوف. ثم جروني عائدين بي مرةً أخرى إلى غرفة التحقيق.

لم أشعر بأية أهمية للانشغال بماضيها الذي تتحدث عنه، أو بأي ماضي آخر سوى بالقدر اليسير. فقد كنت أعيش فقط في اللحظة الحاضرة، معتبراً أن الماضي جثة هامدة أتخفف من حملها. حتى أفقت لوهلة على التقاطع الحاسم بين ماضيها وبين حاضر الرجل. لكني فكرت أن عملها للفيلم ما هو سوى نوع من التأمل المستغرق في الذات. حيث تتبع ماضيها وقد دخل حاضراً أخراً، فتستوقفه وتحاول فهم أسباب ظهوره هنا، املةً بذلك أن تتخلص منه إلى الأبد. ولايعنيها في ذلك الحاضر الآخر الذي ظهر فيه، ولايهمها التباينات الشاسعة بينه وبين ماضيها، ولا الاختلافات الجوهرية التي تحدده. بالتأكيد كانت ستفعل نفس الشيء وستخرج بنفس النتيجة بصرف النظر عن أي حاضر

كانت لتتعامل معه. فكل الحواضر ستُسَطَح وتصبح شاشةً تعرض فيلم مواجهتها مع ماضيها.

عندما سمعتُ صوت الطلقات مرة أخرى قلتُ لها إنهم يضربون ثانية، هذا جنون مطبق. أصاخت السمع ثم قالت لا... لا... ليست هذه بطلقات، إنه صوت الديناميت الناسف، هل تميزه؟. إنهم ينسفون الآن أحد البيوت. يأتون مساءً ويعطون أهله مهلة عشر دقائق بعدها يحشون البيت بأصابع الديناميت، ثم يُقبل البلدوزر ليسوي ماتبقى بالأرض.

لم أرَ سوى العديد من القيلات الأنيقة الهادئة في الطريق إلى منزلها القائم في هذه الضاحية الشمالية. بدا واضحاً أنها تنتمي للجزء الغربي من المدينة. أخذت أسير في الطريق الطويل الملاصق للغابة، أتلمس السكينة والجمال وأملأ رئتي من الهواء البارد في دفء شهر يوليو. لم أقابل إنساناً واحداً في هذا الشارع. فكرت أن هذا المكان يصلح منتجعاً مثالياً للمتقاعدين. حتى وصلت إلى آخر بيت فيه قبل أن ينفتح على الغابة. البيت الوحيد الذي يتكون من شقق. ضغطت على الجرس، ففتحت لي باب شقتها مبتسمة، وكانت هناك لافتة صغيرة معلقة علي الباب تقول: الرأسمالية لم تنتصر ولكنها آخر ماتبقى.

كان الرجل يكرر أحياناً مايقوله دون أن يلحظ ذلك. يرتدي قميصاً سماوياً نظيفاً. وتتدلى رأسه ناحية كتفه الأيمن بعض الشيء. بدا متماسكاً. من حين لآخر ينوء بحمله فيميل إلى تجسيده بجمل منحوتة عن المقاومة حتى النصر، وعن كرامة الإنسان

الذي لن يخضع، وعن الصمود الذي لن ينكسر. جمل تنتمي إلى طبقة متماسكة من الألم، يلجأ إليها عندما يفشل في التعبير عن الطبقة السائلة المضطربة لألمه الذاتي. أو لعله كان يريد أن يتجاوزه لينتقل مباشرة إلى المحتوى الذي يتعين على كل تجربة شخصية أن تصب فيه. جمل بسيطة وساطعة، حادة ورهيفة كالشعارات، بذل كثيرون الجهد في صياغتها ليحتمي تحتها الجميع.

كررتُ لها ماقاله عن السجن الإداري. ست سنوات قضاها بعد ذلك متنقلاً بين معتقلات أنصار، خان يونس، رفح، منتهياً إلى النقب. اصطاد فيها العديد من العقارب والحيات. ثم أوضحت هي لي بعد استفهامي أن السجن الإداري هو تقليد استعماري قديم يتم بمقتضاه التحفظ على أي فرد بدون ذكر أسباب ولمدد قابلة دوماً للتجديد. فأكملَ معضداً كلامها أنه لم يكن عليه أي مشكلة ولم يستطيعوا أن يثبتوا عليه أي شئ. بعدها امتدت سحابة من الصمت كان فيها متحيراً من موقفه هذا. كيف يستطيع أن يضم ست سنوات في بضع دقائق؟ ولأجل ماذا يحاول أن يضع يده من جديد على ما غار في نفسه أمام هذه العين الميكانيكية؟

أشارتْ سريعاً إلى العجوز التي مرقت وقالت هذه أمه، لقد تلقت أمامي عياراً في فخذها. كانت تقيم معنا في نفس البيت. فلقد وزع ناشطو السلام أنفسهم على البيوت لمنع تدميرها أو على الأقل تأخيره. كان هناك متطوعون كثيرون. معظمهم قادم من أوروبا وأمريكا. البيت الذي كنت أقيم فيه يقع في رفح. هنا برقت

في ذهني جملةٌ لصديق لي فسألها على لساني إذا كانت لاترى في ذلك تكريساً لمفهوم العنصرية، فلا تُطلَق النار على البيض، بينما تُسفك دماء أهل المكان براحة ضمير. فقالت إذا صدق هذا حقاً فما فعلناه هو أفضل استخدام للعنصرية. نستخدم الامتيازات التي مُنحت لنا لكي نحمي بها من سُحبت منهم. وابتسمت.

أبديتُ تحرجاً في الإجابة عن سؤالها المتعلق بشكل نهاية الفيلم كما أتخيلها. أصرت على معرفة رأيي. أخرجت السؤال الذي كان يلح عليّ طوال الوقت، سألتها وهل تعتقدين أن باستطاعتك التعبير بدقة عن آلامهم؟ أنتم الأوربيون دائماً الفاعلون: مستعمرون، فاشيون، ثم ناشطو سلام، ومعبرون عن آلام الشعوب. كانت الكياسة قد فارقتني بهذا الهجوم الشخصي، فقد كفت عن ابتسامتها وقالت بجدية: ماذا تعني؟ أنا أعمل هذا الفيلم حتى يطّلع الناس على حقيقة مايحدث، فيكفوا عن تصديق ماتعرضه عليهم وسائل الإعلام. من السهل جداً تعريف الألم بأنه أمر داخلي لايجوز لأحد من الخارج أن يشاركك فيه. فكل ماتفعله أنك تستبدل العنصرية الأوروبية الطاردة بالشوفينية المحلية المنغلقة. عموماً لست أنا الذي أقف في طريقك لعمل شيء، صدقني. ماجذبني لهؤلاء البشر هو قدرتهم الغريبة على الدعابة والمرح وسط كل مايتعرضون إليه. قدرتهم المتدفقة على الحياة. أعتقد أنك تخلط الأمور بعض الشيء.

جاء صوته بحسم من يريد إنهاء الحديث قائلاً إن المشكلة تكمن في سوء الفهم المستمر للتاريخ. سألتني هل قال ذلك فعلاً،

فأجبتُ بنعم. فقالت وهي تدوّن إنها جملة رائعة. إن الصبية العرب الذين يعتدون على المعابد اليهودية يختلفون عن النازيين الجدد الذين يفعلون نفس الشئ. ويُسئ الجميع فهم هذا. يقولون فوراً إنهم معادون للسامية. ولايفهمون أن العرب بدورهم يسيئون الفهم ويخلطون بين اليهود وإسرائيل، بينما النازيون لا يخلطون أي شيء، إنهم واضحون تماماً في معادتهم للسامية، هذا لايعني أنني أبرر الاعتداء على المعابد لأي سبب كان، ولكن أنظر ألا ترى في هذا مثالاً ساطعاً لما يقصده بسوء الفهم المستمر للتاريخ؟.

السكينة والسلام اللذان يرفرفان على هذه الضاحية المجاورة للغابة الكبيرة، ينحسران ببطء عن اضطراب وفوضى يبعثهما اصطدام النازية بالصهيونية، المقدرة على الفعل بالعجز عن الفعل، العنصرية بالعنصرية. أرض مضطربة تميد بتيارات متناحرة. وظلال شكوك لاتنقطع. وكأن الضاحية قد تحولت إلى غور مخيف لامخرج منه.

كنت أتطلع فقط إلى الرجل، صورة أخرى أضيفها إلى أرشيف صوري. أنحرفت بناظري إلى الشرفة الصغيرة وأنا أفكر في عجزي ذلك، متطلعاً إلى ضوء الأبدية الثابت. كان الأمر يتجاوز الزمن التخيلي الذي تسبح فيه الصور، كان الأمر يتعلق باقتصار وجودي على وظيفة المشاهد المتلقي للصور. فلم يكن الرجل مجرد صورة تخيلية لايمكن مسكها بل أصبح وجودي أنا وجوداً تخيلياً من كثرة الصور التي تعرضت إليها ولم أستطع

إخراجها بأي شكل. كلاهما حقيقيان واعيان لما يدور حولهما، يجمعهما زمن آخر أقوى من الزمن الحقيقي الذي أجلس معها فيه، في حين كنت أنا وحيداً رغم قرب عربيته مني، عاجزاً لا أقوى سوى على نقلها إلى الألمانية لكي تواكب كلامه في فيلم تسجيلي، تأمل صاحبته أن يعمل على تسريب بعض الشك إلى النفوس المؤمنة.

ضغطتْ بحسم على زر جهاز الفيديو فاختفى وجه الرجل من الشاشة المضيئة إلى الأبد.

ملحق ا: نبذة عن الفاشية

– انت من بيروت؟
– لا من الجنوب. كيف كبيرة القاهرة؟
– اه كبيرة، أكبر من برلين، فيها تمنتاشر مليون بني أدم.
– برلين أصغر شوية من كل لبنان. ضيعتنا اسمها ميس الجبل بينها وبين بيروت ميه وخمسين كيلو. قديش بقالك هنا في برلين؟
– تلات سنين. وانت؟
– اتناعشر سنة، شو متجوز ولا عم تدرس؟
– لا والله مابدرسش لكن انا مقيم ومتجوز من المانية.
– عندك عيال؟
– لا والله.
– خي بدي أقولك نصيحة، النصيحة اليوم ببلاش بكرة بجمل، مهما كانت الألمانية ملاك ومهما كنت متفاهم انت وياها لاتجيب عيال، بدك تجيب عيال من بنت بلدك ودينك. هلأ صاحب المحل كان متجوز ألمانية وجاب منها ولد وبنت، اطلع اليوم عليهن، عياله ماهم إله هم لأمهم. فهمت عليّ؟
– ...

- سلاموا عليكوا.
- عليكم السلام.
- ...
- ...
- انت مصري؟
- آه مصري.
- ياراجل انا افتكرتك خواجه، دي مراتك دي اللي معاك؟
- آه مراتي.
- منين؟
- من ألمانيا
- أهلاً وسهلاً. قولها إحنا بنحب الألمان علشان هما بيكرهوا اليهود زينا.
- ...

- ثم ماذا حدث؟
- في البداية لم أميز صلعته، فلم يكن الضوء كافياً، لكنه ميزني فوراً وصرخ أن هذه حديقة للآريين فقط وأنني لاجئ قذر لايحق لي الجلوس في هذه الحديقة.
- ألم يكن هناك أحد في الحديقة؟
- بضع أفراد متناثرين، أنت تعرف الناس هنا، أنهم نازيون بالفطرة. ثم أخذ النازي يصرخ بهستريا نيجر نيجر خراء خراء.
- ثم ماذا؟

– لاشيء. قلت له أنني لن أرحل عن هذه الحديقة، ثم تجاهلته ببساطة وأكملت جلوسي. الأمر حدث بسرعة شديدة، ولمحت في نفسي ظلال إعجاب خفي لضم النازي لي إلى شعب أفريقيا الأسود، شعرت فجأة أن من دواعي الشرف أن أصبح نيجر، وأن هذا يمنحني القوة لكي أقتص لشعبي من هذا الحقير. كان يبدو ثملاً، ضخم الحجم، أكمل نباحه حتى ملّ ورحل.

– هل تعتقد حقاً أن الجميع هنا نازيون؟

– (ابتسامة) لقد عملت كسائق تاكسي لسنوات في هذه المدينة، وتعاملت مع مختلف الطبقات والعقليات، وأستطيع أن أؤكد لك وأنا مطمئن أن من منهم لم يظهر عنصريته فهو يخفيها بالتأكيد في مكان آخر، لايغرنك كون أحدهم لطيفاً أو طيباً، إنهم جميعاً من طينة واحدة.

– ...

– ...

– مراتك دي ياأستاذ؟

– آه مراتي ياسطى.

– منين؟

– من ألمانيا.

– مسلمة؟

– نعم؟

– مسلمة ،خلتها تسلم يعني؟

- لا والله.
- طب ليه، خليها تسلم، دا أجر اللي يهدي حد كبير.
- آه.. ربنا يهدينا جميعاً يا اسطى.

- ماذا أنت من مصر؟
- نعم.
- يالله، حقاً؟ أنت قادم من قلب الحضارة. ماهو شعورك وانت قادم من تلك الحضارة الفذة مقارنةً بحضارة الأوروبيين المتهافتة؟
- لاأدري ،لاشيء محدد.
- ماذا؟ لاتشعر بشيء محدد، عليك أنت تكون فخوراً بحضارتك.
- بالطبع أنا فخور، ولكني أود فقط أن أخبرك بأن الأمور قد اختلفت بعض الشيء في الألفي عام الماضية.

- ...
- من المجر؟
- (كلمات غير مفهومة)
- بولندا؟
- (كلمات غير مفهومة ثم كلمة يوجسلافكيا)
- آه.. بوسنة؟
- (نفي بهز الرأس)
- صرب؟
- (نفي بهز الرأس)

- كرواتيا؟
- (نفي بهز الرأس)
- ... مقدونيا؟
- (إيجاب بهز الرأس وابتسامة، ثم إشارة باليد بمعنى وأنت من أين؟ ثم كلمة تركيا)
- لا. من القاهرة.
- (كلمات غير مفهومة بمعنى ماهذا؟ ثم كلمة أمريكا)
- لا.. لا.. القاهرة في مصر
- (كلمات غير مفهومة بمعنى ماهي مصر هذه؟)
- مصر .. الأهرامات .. الفراعنة
- المكسيك؟
- لا.. لا.. مصر في أفريقيا
- (كلمات غير مفهومة وأرجحة للكتفين دلالةً على عدم فهم، ثم ابتسامة باهتة)
- ...

- من أين أنتَ؟
- هذا ليس شغلك ياصغيرة.
- وتتحدث الألمانية جيداً. هل أمك ألمانية؟
- لا. قولي لصاحبتك التي في الحمام أن تسرع.
- (صوت قادم من الحمام) *من أين الفتى الذي تحادثيه في الخارج يا شتيفي؟*

- خمني.
- من أسبانيا؟
- لا.
- (من الحمام) *أمريكي لاتيني؟*
- لا. أسرعي أرجوك.
- إذاً عربي.
- نعم.
- (من الحمام) *انا أكره العرب.*
- لكن العرب يحبونك ياصغيرة، هل تعتقدين أن رأيك يهم أحداً أيتها المعتوهة العنصرية؟
- (من الحمام) *كان لي صديق مغربي اكتشفت انه لص ومزور.*
- لعنة الله عليكِ وعلى صديقك. هلا خرجت الآن من الحمام؟.
- فلتذهب وتتبول في الشارع.
- يا أولاد الزانية...

- هل تدخن؟
- بكل سرور. من أين أنت؟
- لايهم. اعتبرني من القمر. أنا وصديقي ندخن ونشرب بيرتنا بسلام، ولا نحب أن يسألنا أحد هذا السؤال.
- حسناً
- وانت من أين أنت؟
- أما أنا فمن المريخ.

– أرأيت ،حتى أنت لاتعرف كيف تجيب على ذلك السؤال. إنه سؤال سخيف.

– والله احنا مابنأجرش غير لأجانب. مصريين لأ.
– نعم؟
– معلش انت والمدام على عيني وراسي لكن ياما شفنا مشاكل وقلة أدب من المصريين والعرب، إنما الخواجة كلمته واحدة وتعامله نضيف.
– ...
– يعني مثلاً يجيلي سوداني أو صومالي مارضاش أديلوه الشقة حتى لو إداني الف جنيه.
– ليه؟
– زي ما انت عارف حالهم مش قد كده، ولامؤاخذة بيوسخوا الشقة ويبهدلوها، وعيالهم بيشخوا على أبواب الجيران ويزعجوهم، ولما تيجي تكلمه يقولك الأطفال أحباب الله. أحباب أيه وزفت إيه بس.

– مرحباً
– مرحباً
– من أين أنت؟
– من القاهرة، وأنت؟
– من أزمير.

– ...

– ...

– هل تدرس؟

– لا

– كيف حصلت على إقامة إذاً؟

– أنا متزوج من ألمانية.

– آه فهمت.(ابتسامة)

– من أين أنت؟

– خمن.

– يوناني؟

– لا.

– إيراني؟

– لا.

– عربي؟

– أنا من القاهرة.

– إذاً أنت عربي.

– ... نعم نحن نتحدث العربية.

– هل أنت مسلم؟

– هل تسأل كل من تتعرف عليه عن ديانته؟

– في الحقيقة لا.

– إذا؟

- ...
- ...
- وحضرتك عايش بره.
- آه. في برلين.
- برد شوية هناك.
- في الشتا برد جامد.
- ...
- ...
- هم أكيد بيكرهوا العرب دلوقتي عمى.
- مش كلهم. في ناس مابيكرهوناش.
- قوللهم احنا مابنكرهش حد، خليهم يشوفوا اللي بيعملوه الأمريكان عندنا وهم يفهموا.
- حاضر.

- هل هذه صورة بن لادن يابني؟
- أتقصدين الصورة التي في صفحة الجريدة الأولى؟ لا ليس هو.
- له وجه جميل. شديد الفتنة.
- وجه جميل ولكن للأسف عقل قبيح ياسيدتي.
- قل له أن يفعل خيراً لهذه العالم.
- ماذا؟ ولماذا أقول له أنا ذلك؟
- لا شئ، أنت تقرأ جريدة تبدو بلغته.
- بلغته؟ وماذا في ذلك؟

- لاشئ، كل مافي الأمر أنني لا أقابله.
- وأنا أيضاً لا أقابله، ماذا يدور في رأسك الخرف؟

ملحق ب: تقديم موجز لبعض من ورد ذكرهم.

-١-

عبرنا الطريق إلى الضفة الأُخرى ثم انحرفنا يساراً كالمعتاد إلى حقوق حيث وجدنا تامر هائم على وجهه يبحث عن سجائر، أخذناه وانطلقنا إلى آثار وهناك لعبنا البنج مع إيهاب حاتم ومحمد بيكي وأشرف فاوي وهم جميعاً من إخواننا من المدرسة الثانوية، ثم عرّجنا على تجارة حيث أحمد نصر، رحب بنا وأشربنا شاياً من امرأة كانت تعبر الطريق بصينية. لم يكن أحمد على ما يرام. جاء أسامة وسلّم علينا وتجاذب أطراف الحديث مع تامر، ثم تمشينا أنا وشريف مع أحمد لمحاولة معرفة ما به، وصلنا إلي علوم بعد أن عبرنا البوابة التي تفصلها عن تجارة. كان الجو مضطرباً في علوم، حيث التقت حول الحديقة الصغيرة المزينة حديثاً بالحجر الفرعوني مسيرتان حاشدتان إحداهما مسيرة الجماعة الإسلامية والأخرى مسيرة أُسرة حورس والمناسبة كانت انتخابات اتحاد الطلبة، فأسرة حورس الليبرالية تسعى هذا العام لكسر احتكار الجماعة الإسلامية للانتخابات. كانت الحديقة موقعاً استراتيجياً للفضوليين وأبناء السبيل أمثالنا، فالمرء يشرف على كلتا المسيرتين دون أن يتحرك سوي بضع خطوات. على مسافة

قصيرة مني تمدد أحدهم على عشب الحديقة القصير وقد توسّد حذاءه، عندما دقّقت النظر تعرفت عليه بالرغم من أن قصّة البانك التي عُرِفَ بها اختفت وحل مكانها شعر قصير مصفوف على الجانب، إنه حسن. لم أكن رأيته منذ سنوات، ملت عليه وسلمت فتذكرني في الحال وسألني إلى أي الفريقين أنتمي، فقلت له أنني مجرد متفرج، ثم سألته بدوري مالذي يفعله هنا، فقال أنه طالب هنا في علوم قسم كيمياء، كان ما قاله مفاجأة بالنسبة لي فلقد أغلق حسن ملف التعليم بعد إعادته امتحان الثانوية العامة ثلاث مرات أملاً في الحصول على مجموع، وفي كل محاولة كان يحصل على نفس المجموع الهزيل. زاملته في الفصل أثناء المحاولة الأولى، كان طالباً شديد الذكاء والمرح متميزاً في اللغة الإنجليزية والرياضيات بالإضافة إلى اهتمامه بالموسيقى وهو ما كان سبباً في تعارفنا. ففي ذلك الوقت كان هو مهتماً بموسيقى الراب السوداء ويعتبرها موسيقى ثورية في حين كنت أنا ميالاً إلى الروك والأغاني الشعبية. حسن هو أول من نبهني إلى العلاقة بين الراب وموسيقى الجاز والبلوز ذوات الأصول الإفريقية، وهذا بالذات ماكان يأخذه على الروك حيث اعتبره موسيقى بيضاء، واعتبر أيضاً أن ثورة الروك قد انتهت وحلت محلها ثورة السود المقموعين. أخذنا نتبادل الشرائط، فأستعير منه بعض شرائط الجاز وأعيره بعض الشرائط الشعبية التي كان يستحسنها ونتبادل الرأي فيما نسمعه، وأكثر ما اجتمعنا عليه هو نفورُنا الشديد من الأغاني المعاصرة وبالذات ممن يقدمون فنا راقيا كعلي الحجار

وهاني شاكر.

الذي حدث بعد ذلك، وفي أعقاب الترم الدراسي الأول، أن حسن تحول إلى شخص غريب الأطوار، يأتي صباحاً منكوش الشعر وفي عينيه آثار النوم، لا يكلم أحداً، بل أحياناً يكون مرتدياً البلوفر مقلوباً على ناحية الخياطة ويظهر من فتحته فانلة داخلية باهتة، لم أكن صديقاً قريباً منه فخجلت أن أسأله عن حاله. قال البعض أنه يعاني من مشاكل عائلية وأن والديه قد انفصلا وأنه يعيش الآن مع جدته، في حين قال المقربون منه -وهم قليلون- أن هذا ليس صحيحاً وأن حسن أصيب بلوثة نفسية. كاد العام الدراسي أن ينصرم وحسن يذوي لوحده صامتاً دون أن يسمح لأحد بالاقتراب منه، وعندما حانت الامتحانات اختفى تماماً ولم يظهر إلا بعد بداية العام الجديد كما يروي من رسبوا. آخر ما سمعته عنه أنه سافر إلى العريش للعمل هناك.

زادت حرارة الهتاف والشعارات، وكان التقاءُ الجَمعين يشبه التقاء كلبين مسعورين على شفا أن ينهش أحدهما الآخر. صفَّ طلاب الجماعة الإسلامية أنفسهم ثم جلسوا جميعاً على الأرض باستثناء خطيبهم الذي انتصب في وسطهم، في حين أخذت الحماسة طلاب حورس وهم ينشدون للحرية فكانوا على شفا البُكاء. صرخ الخطيب : "انظروا...إن طلبة الحزب الوطني الحاكم يتحدثون عن الديموقراطية، منذ متى والحزب الوطني يعرف الديموقراطية؟ ". تعالت هتافات حورس: "يا حرية فينك فينك، الجماعة ما بينّا وبينك"، وصرخ أحد طلاب خط التماس

"نحن لا ننتمي للحزب الوطني وأنتم آخر من سيعلمنا الديمقراطية"، فقام له أحد الجالسين وقد إحمر وجهه من الانفعال "بل نحن الذين سنعلمكم. شئتم أم أبيتم." فسخر الطالب من مقولته وصاح "هاهم يظهرون الآن على حقيقتهم" وهنا لم يستطع الذي كان جالساً السيطرة على انفعاله وزعق والدماء تكاد تخرج من عينيه " كلكم هنا جهلة. ونحن الذين سنعلمكم" ثم بصق في وجه محدثه. فانفك الكلبان من رباطهما واشتعلت نار لم يستطع أحد إخمادها.

آثرنا السلامة فشققنا طريقنا بسرعة خارج الحديقة، ولمحت حسن وهو يلملم حذاءه ويأخذه تحت باطه مسرعاً. كان الملجأ المعتاد في أيام الاضطرابات هذه هو سياسة واقتصاد. كلية سياسة واقتصاد هي المنتجع الرسمي الذي تهوي إليه أفئدة الطلبة من كل مكان، ليس فقط لشهرة فتياتها وشبابها بالجمال والأناقة، ولكنها كانت أيضاً المكان الوحيد في الجامعة الذي لا يمكن لشئ أن يعكر صفوه. فترى الجميع يتحلقون حسب مراتب جمالهم ونسبهم، فالأقربون إلى مدخل الكلية هم الأكثر حظوةً وجمالاً، يليهم طبقة فتيات الإعلانات، ثم أنصاف الجميلات، حتى ننتهي بالعامة الجالسين في الحديقة الصغيرة المحيطة وهم في الواقع الأكثر جرأة حيث أُغلقت الحديقة أكثر من مرة لتعدد حالات الأوضاع المخلة. والجميع هنا يجلسون بسلام وهدوء كلٌ مشغولٌ في حاله، ونادراً ما تطولهم حمّى الاضطرابات. التقطنا أنفاسنا قليلاً ثم أبصر أحمد أحد أصدقائه في إحدى الحلقات فانضم إليهم، ثم عاد

بعد قليل وبصحبته صديقه بهاء، عرفنا عليه، كان نحيلاً متوسط القامة متألق العينين تعلوه مسحة شحوب خفيفة. سألنا بهاء إذا كنا نضرب البالمورال لأن معه زجاجة وينوي الذهاب إلى دورة المياه الآن، لم نكن من هواة الكيمياء فاعتذرنا له. ثم استأذن بعد ذلك منصرفاً وبصحبته أحمد.

وجدنا أنفسنا أمام باب بين السرايات فخرجنا. لم نكن من الجالسين على مقهى البرلمان ولا من الآكلين عند سندويتشات صبري، وقد انتبذنا لنا مقهى تسمى العروسة تقع على مدخل بين السرايات القديمة من ناحية شارع المرور، لا يجلس عليها طلبة سوانا، وبعض العاطلين وأرباب الحرف والمعاتيه. تحدثنا قليلاً بشأن أحمد وفشل قصة حبه التي استمرت ثلاث سنوات لإنه لايستطيع التقدم لخطبتها الآن. حتى شعرنا بالملل فنهضنا وركب كل منا مكروباصه.

-٢-

فتحتُ الشباك وقلت لشريف من الأفضل أن نجلس بجواره، فاتكأنا على السرير وأطللنا بجسدينا من فتحة الشباك. ثم جاء الدور عليّ فتناولت الكوب واستنشقت الدخان المتجمع فيه عبر الفتحة الصغيرة. سألتُهُ عن ماذا يتوقع بعد ذلك؟، قال: لا أدري ولكني أريد أن أسافر، أشعر برغبة لرؤية العالم، فقلت وما أدراك أنك سترى شيئاً جديداً؟، قال بالطبع هناك أشياء جديدة في العالم،

أنا لا أريد أن أجلس هنا أنتظر الموت. ثم أقترح شريف أن نطفئ النور، فقمت وأطفأت النور وعدت إلى مكاني جواره، وقلت له أني لاحظت أن الرائحة كثيفة في الغرفة، فقال إن هذا هراء لأننا نستنشق الدخان كله بالإضافة إلى أن الهواء القادم من الخارج يطرد الهواء ذي الرائحة. انتهت القطعة فجهزّ قطعة أُخرى وعلقها في سِن الدبوس ثم أشعلها وأغلق الكوب. قلت له أن السفر الآن يبدو لي مخيفاً، أشعر بكسل عن رؤية العالم، فقال أنت لاتعرف عن ماذا تتحدث، تعتقد أن حياتك هي الجامعة والأصدقاء والجلوس على المقاهي، ولا تعرف أنك إذا لم تتحرك الآن فستظل مقيداً طيلة حياتك، فرددت بأني لا أشعر بأي جديد يأتينا من الذهاب لمكان آخر، أنا أيضاً أشعر بضيق الحياة التي نحياها ولكن نفس الخراء ستجده في كل مكان. قال بزهق من أخبرك بذلك؟ أنت تقرأ عن العالم وتظن أنك تعرفه، أما أنا فلا أقرأ قط، ولايهمني مايدور في كتبك الزانية تلك، أهم شئ أن يكون المرء صافياً مع نفسه. وفجأة وهو يمد يده بالكوب ناحيتي اضطربت يداه فسقط الغطاء إلى الخارج، أنقذنا الكوب من السقوط هو الآخر ومددنا جسدينا إلى الخارج لنرى أين سقط الغطاء. صرخ شريف خراء...خراء...فرج أم الهواء، فقلت الهواء ليس له ذنب لقد ارتعشت يداك فسقط الغطاء، فقال اسمع إني أدخن الحشيش منذ كنت في بطنِ أُمي وليست هذه الكمية التي تجعل يدي ترتعش، فقلت له حسناً...حسناً، وأضأت نور الغرفة. قال ماذا نفعل الآن؟، فقلت لاأدري إني أفكر، ثم قلت ما نستطيع أن نفعله هو أن نذهب

إلى غرفة التليفزيون وننظر من الشباك هناك حيث الرؤية أوضح، ولكن ينبغي أن نكون هادئين لإن أختي تشاهد التليفزيون، لاحظت أن عينيه حمراوتان وقلت له أن عيناي لابد هي الأخرى حمراء كذلك، فقال أن أحداً لن يفهم ذلك. فتحت باب حجرتي ببطء ومشينا بهدوء حتى دخلنا غرفة التليفزيون وأخبرت أختي أننا سوف ننظر بسرعة من الشباك لأن شيئاً قد سقط منا، فتح شريف الشباك الكبير ونظر منه، تطلعت أُختي إليّ فتحاشيت نظراتها، صرخ بعصبية وهو يهتز خراء...خراء لا أستطيع أن أرى شيئاً، فارتبكت ثم سألتني أختي ما الذي سقط منا، فقلت لها أنه قلم شريف، فقالت ولكن كيف سقط، فقلت إنه سقط وهذا هو المهم الآن. ثم سحبت شريف إلى الخارج وقلت أننا سنذهب إلى حجرتي لكي ننظر من هناك. وما أن أغلقت باب الحجرة علينا حتى قلت له بغضب إنه رسمياً ابن زانية وإني قد حذرته من أن يسئ التصرف أمام أختي لأني أحبها ولا أريد أن تتعرض لهذه البلاهات، فقال يا إبن القذرة أنا لاأبالي بأختك، ولن يخطر ببالها على أي حال ما نفعله، فقلت كفّ عن تصور أنك النبيه الوحيد، إنّ أختي ليست غبية، أنا لم أعرف كيف أفعل لها شيئاً حسناً طوال حياتي لذلك على الأقل لا أريد أن أؤذيها، فقال وقد ازدادت عينيه احمراراً أنا فقط أُريد قطعة الحشيش التي سقطت...الآن...هل فهمت !. أدركت أن شريف واقع تماماً تحت تأثير الحشيش لذلك يجدر بي التصرف بهدوء وتأنى حتى لا يتأزم الموقف، فقلت له حسناً إننا الآن لسنا في حالة طبيعية وإذا هدأنا

قليلاً سنفكر بشكل أفضل، انفعل وقال بهستيرية مرة أخرى تخبرني أني في حالة غير طبيعية، لقد أفسدت عليّ تماماً متعة الحشيش أيها المغفل، ثم صمت كلانا.

سمعت طرقاً خفيفاً على باب الحجرة، فتحت الباب فوجدت أختي بالخارج، قلت لها ماذا تريدين؟ فقالت أن عندها فكرة وهي أن تمسك بأباجورة المكتب وتدليها من الشباك وننزل أنا وشريف للبحث عن القلم المفقود، لم أعرف ماذا أقول من وقع المفاجأة، وصاح هو من الداخل إنها فكرة رائعة....فكرة رائعة، ابن القوادة يعتقد أنها فكرة رائعة، أغلقت الباب وأنا أغلي وقلت له اسمع أخبرتك ألف مرة أني لا أريد أن تشترك أختي في هذا الخراء، وأن هذه ليلة خراء، وأنه غبي لا يريد أن يفهم شيئاً، فقال أن أختي لن تشارك في أي شئ...إنها فقط سوف تمسك بالأباجورة من أعلى، فقلت له أنه وقح وإذا لم يحترم نفسه سوف أزني بأمه.

طلبت من أُختي أن تحرك الأباجورة قليلاً لأن الضوء ضعيف، كنت ملتصقاً بصديقي حتى أحكم السيطرة على أي تصرف سيء منه. وبدأنا نبحث وسط الحشائش القصيرة، ثم اتجهنا إلى مكان الدجاجات التي تربيها أمي، كانت الإضاءة ضعيفة حقاً فقلت لصديقي لننسى الأمر كله ونواصل استمتاعنا بوقتنا، لم يبدُ أنه سمع فقد كان منهمكاً في البحث، ثم عثرنا على الغطاء ولكن بدون قطعة الحشيش، أخذ يهش الدجاجات ويبحث في مكانها، تعجبت من احتماله لهذه القذارة. ثم طرقت رأسَه

الفكرة، فأخذ يصيح بجنون الدجاجات ... الزانيات ... الدجاجات ... خراء ... خراء ... الدجاجات الزانيات أكلت الحشيش ... خراء، وأخذ يطارد الدجاجات. فقدت السيطرة عليه ولم أعرف ماذا أفعل، أسرعت إلى أعلى لكي أغير ملابسي، رأتني أختي وضحكت فطلبت منها أن تطفئ النور وتذهب إلى غرفتها، لم أشعر بالهدوء إلا بعد أن أغلقت الباب خلفنا وجررت شريف إلى الشارع.

-٣-

سئمت من مشاهدة التليفزيون فذهبت إلى غرفتي، أردت أن أشغل الكاسيت لكني لم أجد موسيقى أتحمس لها، كان الجو لايزال حاراً رغم تأخر الليل والملل قد أكلني فقررت أن أنام، ثم سمعت أحداً ينادي فنظرت من الشباك، رأيت تامر يرتدي ملابس سوداء وبيده كيس بلاستيكي أسود وكأنه الحداد، فقلت له أن يصعد وذهبت لأفتح الباب له، فقال لي عندما رآني لقد انتهيت !! كانت عيناه زائغة وتفوح منه رائحة الكحول والعرق، قلت له من أين أتيت؟ مالذي حدث؟ أُدخل...أدخل، جلسنا على الأرض في حجرتي وفتحت الكيس الأسود فوجدت به زجاجة زبيبا مفتوحة وعلبة سجائر كليوباترا، أخرجت سيجارتين وأعطيته واحدة وأخذت الأخرى بعد أن أشعلتهما، قال لقد انتهيت !، قلت ما هذا...لقد انتهيت...لقد انتهيت ما الذي حدث يا معتوه، قال إحضر

كوبين فأحضرت كوبين رغم أني لا أحب الزبيبا، ثم بدأ يروي قائلاً لقد كنت الآن مع چي چي، مرّ شريف عليّ في السنتر وقال أن منزل خاله الذي يحمل مفتاحه خال الآن، فصعدت إلى محل فونيكس حيث تعمل چى چى وأخبرتها بالأمر، بدتْ خائفة فشجعتها وقلت لها أننا ننتظر هذه الفرصة منذ فترة، أنتَ تعرف، فقالت لي حسناً الساعة الرابعة حيث تنهي عملها. شرد تامر قليلاً ثم قال هل تعرف أن ابن القحبة هذا يتعقبها؟، فقلت إنه يريدها ويقول أنه لافائدة منك ولا تعرف كيف تنتهز الفرصة وهو يرى أن هذه أسباب كافية ليدخل هو، فقال لقد تغير حقاً، إنه الآن ينتمي لفصيلة الكلاب دينياً، فأنا لم أحاول أن أقترب من صديقته، لماذا لا يتركنا في حالنا، هل تعرف ماذا فعلت چى چى منذ يومين؟، فقلت ماذا؟، فقال كنت عندها في المحل فاتصلت بالتليفون وتبادلت عبارات ناعمة مع الطرف الآخر ثم أعطتني السماعة فسمعت القواد وهو يتصنع كلمات الحب ... أنت قلبي ... أنت روحي ... أنت مؤخرتي ... إنه شاذ حقاً، فضحكت وقلت له لكنها تلعب معه أيضاً، فقال لا أُنكر ذلك ولكن ما بيننا شئ خاص، فقلت آه...شئ خاص...حسناً ماذا حدث بعد ذلك؟، قال ذهبنا إلى البيت، ولابد أن أعترف أنّ إعطائنا المفتاح رجولة وشهامة منه، وبعد أن حذرني من تَرك أي أثر رحل، لكنه عاد مرة أخرى لكي يستدين مني عشرة جنيهات لأن البنزين قد نفد فأعطيته، فضحكت وقلت له أنه لن يرجعها، فقال لماذا؟، فقلت أنا أعرف شريف...إنسَ العشرة جنيهات، فقال القواد يأخذ مني الثمن، إذا لم يُرجع العشرة جنيهات

سوف أزني به وبأمه، فقلت له حسناً...حسناً لكني إلى الآن لم أعرف ماهي المشكلة، فقال المشكلة أيها الغبي أني فضضت بكارة چي چي وأنها الآن حامل.

كانت زجاجة الزبيبا قد أوشكت على الانتهاء، فصببت آخر كوبين وأنا منفعل وأشعلت سيجارة وقلت له هذا جنون، كيف يا غبي، هذا جنون، قال هذا ما حدث، لقد أدخلت أصبعي ولم يحدث شئ ثم أدخلته وبعد أن انتهينا أخذت تولول وتصرخ، قلت هل كان هناك دم؟، قال بقعة أو اثنتين صغيرتين، قلت وأنت ألم تشعر بشئ؟ قال لا، قلت مستحيل، لابد أن يكون هناك دم كثير وأنت تشعر أنت بشئٍ ما، قال وما الذي يجب أن أشعر به؟، قلت لا أدري ولكن يجب أن تشعر بشئٍ ما. ثم فكرت قليلاً وقلت حسناً ربما كان هذا دم الدورة الشهرية وتوهم كلاكما بأن غشاء البكارة قد فض، فقال هذا مستحيل، فقلت إذا كانت حامل حقاً فيجب أن تتخلص من الجنين بأي شكل، فصمت قليلاً ثم قال لكنه إبني، أنا لي إبن الآن، أتفهم؟، فقلت له تزوجها إذاً يا ابن الزانية، قالّ هذا مستحيل أيضاً لأنها مسلمة وأنا مسيحي، هدأ قليلاً ثم قال أنه يشعر بأن حياته قد تنجست وأن رزقه سوف يتوقف، ثم صمت كلانا.

قال هل تعرف أين ذهبنا بعد ذلك؟، فقلت أين؟، قال ذهبنا إلى صديقي الطبيب الذي يسكن في نفس المنطقة، أنت تعرفه. قلت له ولكنه حمار. قال حمار لكنه طبيب ومعه شهادة. أخبرته بما حدث

فطمأنني وطلب مني أن أخرج حتى يفحصها، فخرجت، ثم أعطاها بعض الحبوب، تصور ماذا قال لها بعد ذلك؟ قال أنه يجب أن يلعب قليلاً في ثدييها حتى تتكون بعض الإفرازات في الأسفل وتساعد الحبوب في عملية الطرد. انفجرت في الضحك وأنا أقول ابن الحرام واستلقيت على ظهري حتى طفرت الدموع من عيني... ومن عين صديقي أيضاً.

الفهرس

١- جماعة الأدب الناقص	٥
٢- التبول على العالم	٢٥
٣- دائرة صغيرة مفرغة	٢٩
٤- النزهة الأخيرة	٣٥
٥- الحقول الخضراء	٤١
٦- حتى زرتم المقابر	٥١
٧- الهجر والحرمان	٥٩
٨- فيصل - ١	٧٣
٩- فيصل - ٢	٧٩
١٠- فيصل - ٣	٨٥
١١- المقامة البرلينية	٩٥
١٢- الأول من مايو	١٠١
١٣- ضاحية التاريخ	١١١
- ملحق ا: نبذة عن الفاشية	١١٩
- ملحق ب: تقديم موجز لبعض من ورد ذكرهم	١٢٩

صدر للمؤلف:

"خطوط علي دوائر". مجموعة قصصية مشتركة مع أحمد فاروق، أحمد غريب، نادين شمس، علاء البربري، وائل رجب. دار شرقيات ١٩٩٥